التواصل الحضاري ومفهوم الحداثة
في
قراءة النص القراني



بقلم
الشيخ عمار التميمي


شبكة الفكر
alfeker.net

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى اهل بيته الطيبين الطاهرين ...

تبنى الفكر الانساني منذ بواكير وعيه الاول العديد من المناهج والاعتقادات التي كانت غالبا ماتساير فكره وتماشي مدركاته ، واستمرت تلك المناهج بالتطور مع نمو العقل البشري على مدار الحقب الزمانية المختلفة في شتى ميادين العلم والمعرفة ، تتسابق على التغيير معاضدة المناهج المعرفية التي شيدتها الشرائع السماوية تختلف معها وتأتلف تارة اخرى ، الى ان تداخل بينهما المبنى الاسطوري القائم على الخرافة كفاصل برزخي بينهما معلنا الهيمنة على التفكير المنظم المتجانس مع المناهج السماوية ، وكان متوسما بوشاح العقيدة متسربلا بلباس الوحي ...

ولم يرضخ العقل النقدي لتلك المفاهيم الاسطورية ، فقام بتلوين افكاره بالوان وايدلوجيات لاجل التعامل الامثل مع الانسان والكون والطبيعة فعمد على اعتناق المذهب تلو الاخر وقد صاغها في قوالب ليبني منها مدرسة تعتمد على نمط خاص من الستراتيجيات لتحقيق تلك الاهداف ، ويستمر الفكر بالتطور فيظهر عجز تلك المدرسة وقصورها عن بلوغ هدفها المنشود الذي شيدت لاجله...

في حين كانت الرسائل السماوية تلاحق تلك المناهج بانبياء ورسل لاستنقاذه من نسيج الفكر الموهن طبقا لنمو ذهنه وتطور ادراكاته ، الى ان وصلت الى الشريعة الاتم (الرسالة الاسلامية) وقد اينعت ثمارها في تغطية كل جوانب الحياة ، واستمرت على مر الدهور والازمنة ذات ابعاد تفاعلية عصرية في تجدد مستمر تعمل

على تطوير الفكر المعرفي (بعدما تضمنته) وتماشيه لتحقيق المصالح والمنافع..

في حين كان الاخرين يخرجون الى الريديكالية على انقاض المادية الديالكتيكية ، ويبنون الواقعية على حطام الرومانسية وهكذا ، الى ان صار بهم التقلب والتموج الفكري الى اللامنهج فكانت تسمية الحداثة عليه ملائمة للتخلص من براثن الفكر القديم وارهاصاته بأدعاءات واوهام زينتها الالفاظ فارغة المحتوى..

تلك الاوراق تعرض موجزا اسقاطات تلك المفاهيم الحداثوية ممن تاثروا بمصطلحاتها على العقيدة الاسلامية لأعادة قراءة النص القراني وفق اسس ومعايير ادعائية يمكنني ان اصفها بالنزوح من المنهج الى اللامنهج...

وهو بحث مختصر قدم الى احد المراكز العلمية المختصة في الدراسات القرانية ، وقد رأيت من النافع نشره ، وبما ان الباحث قيد باغلال التحديد والتلخيص فلم تكن تلك الاوراق الا ظهورات عن تلك الازمة التي تمر بها الثقافة العربية ، لذا فكانت رؤية من سم الخياط مفتقرة للاستيعاب والشمولية ، ولعل الله عز شانه يوفقنا للسعة والبحث الجاد ..

ومنه نستمد العون والتوفيق...

عمار التميمي

النجف الاشرف

٢٩ شعبان / ١٤٣٥

المبحث الاول

المشروع الحداثوي
ودوره في البناء الاجتماعي

مفهوم الحداثة

حاول كثير من الباحثين رسم صورة واضحة الملامح لمعنى الحداثة الذي اصبح من المفاهيم الهلامية التي يصعب الامساك باحد اطرافها ، وخاصة بعدما اشترك مع المفاهيم التي تبعتد عنه او تقترب في المضمون فتارة يتلبس بالنمو والتغيير والتطور واخرى يصور لنا ضرورة تهديم الموروث والتبعية التقليدية ، طبعا ومنشأ هذا الاختلاف هو ترجمة مفهوم الحداثة ، حيث ظهرت بواكيره في الثقافة الغربية وتم استيراده من قبل البعض تاسيا وتاثرا بما ينتجه الغرب من افكار ، فكانت ترجمة المصطلح التي اشترك بها مع مفهومي المعاصرة والتحديث هو مالعب دورا مهما في تحديده بتعريف جامع مانع لتتضح معالمه ..

ففي المعجم نجد ان كلمة (modernism) بـ تعبير او استعمال عصري ، او العصرانية ، اما (modernity) لاعصرية او كون الشئ عصريا ، الا ان المعجم يضيف كلمة (modernism) على انها حركة في الفكر الكاثوليكي لتأويل تعسف الكنيسة على المفاهيم العلمية والفلسفية السائدة في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، وكذلك بانها نزعة لاهوتية تحريرية (البروتستنية) وايضا بانها نزعة في الفن الحديث تهدف الى قطع الحاضر بالماضي [(١)]

الا ان الدكتور محمد مصطفى هدارة يترجم كلمة (modernity) بالمعاصرة في مقالة له نشرتها مجلة الحرس الوطني [(٢)] ، وبالعصرية في محاضرة له عن الحداثة والتراث ، وقد اعتبر ان هذه المفردة تعني احداث وتغيير

---

[١] قاموس المورد /ص٥٨٦ /طبعة ١٩٨٥

[٢] مجلة الحرس الوطني العدد ٨٦ / ص ١٠٤/ لسنة ١٩٨٩

وتجديد في المفاهيم السائدة والمتراكمة عبر الاجيال نتيجة تغيير اجتماعي او فكري احدثه اختلاف الزمن ، اما كلمة (modernism) فيترجمها بالحداثة ويقول انها مذهب ادبي بل نظرية فكرية لاتستهدف الحركة الابداعية وحدها ، بل تدعو الى التمرد على الواقع بكل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية..

في حين قام محمد برادة بعكس الترجمة فحدث الاختلاف في المفهوم ، حيث عبر عن ذلك في مقالة له نشرتها مجلة (الفصول) حينما قال : (تاخر ظهور الحداثة (modernite) الى منتصف القرن التاسع عشر ، مع ان العصرية (modernism) بدأت ممهداتها في اوربا منذ القرن السادس عشر) [1]...

اما الدكتور كمال ابو اديب فيختلف عن ذلك ، عندما استمر في بيان اوجه الخلاف في المصطلح في مقالته

---

[1] مجلة فصول المجلد ٤/ العدد ٣ /ص١٢/ سنة ١٩٨٤

في مجلة الفصول حيث قال (ولقد اقترحت في عمل سابق ترجمة المصطلح (modernism) بـ الحداثية ولأن (modernism) هي حركة مميزة ، بل مذهب او مدرسة ...اما(modernity) فاني ساستخدمها استخداما عاما بوصفها اشارة الى سمات حضارية معينة ويبدو لي ان الحداثة هي المصطلح الاقرب الى تحديد مفهومها) [1]...

اذن يفرق الدكتورخضر عريف في كتابه (الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة) بين مصطلح الحداثة والتجديد والمعاصر فيقول : " والذي يدفع إلى ذلك الظن الخاطئ هو الخلط بين مصطلح الحداثة (modernism) والمعاصرة(modernity)والتحديث (modernization) وجميع تلك المصطلحات كثيرا ما تترجم إلى " الحداثة " على الرغم من اختلافها شكلا ومضمونا وفلسفة وممارسة ، والواقع أن الاتجاه الفكري السليم يتفق مع

---

[1] مجلة فصول المجلد ٤/ العدد ٣ /ص٣٦/ سنة ١٩٨٤

التحديث ، ولكنه لا يتفق مع الحداثة . وإن يكن مصطلحا (modernity) و (modernization) يمكن الجمع بينهما ليعنيا المعاصرة أو التجديد ، فإن مصطلح (modernism) يختلف عنهما تماما ، إذ ينبغي أن نفرق بين مصطلحين أجنبيين ، من المؤسف أن كليهما يترجم ترجمة واحدة وهي (الحداثة) ..

أما المصطلح الأول فهو : (modernity) الذي يعني إحداث تجديد وتغيير في المفاهيم السائدة المتراكمة عبر الأجيال نتيجة وجود تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن .

أما الاصطلاح الثاني فهو (modernism) ويعني مذهبا أدبيا ، بل نظريه فكرية لا تستهدف الحركة الإبداعية وحدها ، بل تدعو إلى التمرد على الواقع بكل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهو المصطلح الذي انتقل إلى أدبنا العربي الحديث ، وليس

مصطلح (modernity) الذي يحسن أن نسميه المعاصرة ، لأنه يعني التجديد بوجه عام دون الارتباط بنظرية ترتبط بمفاهيم وفلسفات متداخلة متشابكة ، ويمتد الاختلاف بين اصحاب الترجمة ، لذا نحاول بيان المصطلح كما ساقه منظري الحداثوية ..

حيث يرى رولان بارت الحداثة بأنها انفجار معرفي لم يتوصل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه فيقول : " في الحداثة تنفجر الطاقات الكامنة ، وتتحرر شهوات الإبداع في الثورة المعرفية مولدة في سرعة مذهلة ، وكثافة مدهشة أفكارا جديدة ، وأشكالا غير مألوفة ، وتكوينات غريبة ، وأقنعة عجيبة ، فيقف بعض الناس منبهرا بها ، ويقف بعضهم الآخر خائفا منها ، هذا الطوفان المعرفي يولد خصوبة لا مثيل لها ، ولكنه يغرق أيضا..

اما جون اف راندل ، في كتابه (origins of modernity) في معرض حديثه عن مفهوم الحداثة وجذورها عند كانت وهيجل ، فانه يرى للحداثة مفهوما خاصا فيقول : (ان طريقتنا في البحث تفرض ان مصطلح (modernity) العصرية او الحداثة ، هي ليست مجرد وجود تاريخي او جغرافي يوفر الستارة الخلفية في المسرح لتاريخ الافكار ، ولكنها تاسيس للعلاقات الاجتماعية من خلال رأيين او معنيين ، فمن ناحية هي تشير الى المؤسسات والنماذج التي اقامها رجالها الاجتماعيون ، ومن ناحية اخرى هي تمثل سلسلة مترابطة توضح كيف بنيت هذه المؤسسات والنماذج ، وبتعير اخر فان المفهوم الاول مرتبط بصورة ثابتة مع المفهوم الثاني ، المفهوم الذي يمثل الحالات المختلفة للانسان والامثال والنماذج ، وهذه الامثال والنماذج

تخاطب الطبيعة البشرية او النشاط الاجتماعي وتتطور من خلال الاصلاحات المميزة لحركة التنوير الفلسفية [1].

اما هربرت ريد في كتابه الفن والادب فيقول : (اننا نلمس الان ابتعادا من كل انواع التراث ، ولا يمكن ان ندعو هذا الاتجاه بالتطور المنطقي لفن الرسم في اوربا لان ليس هناك مايوازيه تاريخيا ، لقد وجدنا انفسنا فجأة نكفر بجهود خمسة قرون من الابداع الفني) [2] ..

اما فلوبير فيرى الحداثة من خلال مثاله التعريفي لها فيقول (كل ماأريد ان افعله هو ان انتج كتابا جميلا حول لا شئ ، وغير مترابط الا مع نفسه وليس مع عوالم خارجية) [3] ، وغير ذلك من التعاريف التي اتخذت

---

[1] تقويم نظرية الحداثة/الدكتور عدنان علي رضا النحوي/ص٢٩

[2] كتاب الحداثة/مالكو لم برادبري وجيمس ماكفلون/ص٢٠ ،

[3] المصدر السابق/ص٢٥

مسارات وانماط مختلفة بما توصل اليه الباحث من تطبيقات مفهوم الحداثة..

وكان العديد من الباحثين الشرقيين قد تباينت اراءهم حول اعطاء مفهوم محدد لمصطلح الحداثة ، ونعرض جانبا من تلك التعاريف والبيانات ، فقد اعتبرها محمد مصطفى هدارة (اتجاه جديد يشكل ثورة كاملة على كل ما كان وما هو كائن في المجتمع) [١] ، اما علي حرب فيقول (جهد يمارسه الفكر على نفسه لا يتوقف، وبناء متواصل للذات في علاقتها بذاتها، وانفتاح أقصى على الكون، وخلق مستمر للعالم) [٢]

---

[١] الحداثة في الأدب المعاصر ـ هل انفض سامرها ، د . محمد مصطفى هدارة ، مجلة الحرس الوطني ربيع الآخر ١٤١٠ هـ

[٢] أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر: مقاربات نقدية وسجالية"ص٥٨-٥٩.

ويرى نايف العجلوني أنها: (حركة تفكيكية تستمد معناها وقوى دفعها من رفض أو نفي ما حدث قبلا) [(١)]

تلك هي ابرز التعاريف التي ساقها الباحثين ومنظري التيار الحداثوي في العالم الغربي والعربي ، والتي تتمحور في اتجاهات متشابهة ، يمكن ان نلتمس اثرها في تقديس التجديد بما هو جديد باعتبار ان فلسفة الحداثة تقتضي القضاء على السابق بما هو سابق غاضين النظر عن رصانته وجودته بل يبقى الزمن معيار التفضيل ، قال جمال سلطان في هذا الصدد: "هل هذه الخاصية الزمانية تعطيها قيمة مطلقة فضلا عن القداسة، بحيث يصبح هذا النتاج مثلا يحتدى ، ومعيارا يقاس عليه غيره من النتاجات الإنسانية الأخرى ...

---

[١] الحداثة والحداثية: المصطلح والمفهوم"، ص٤٧ مجلة: "أبحاث اليرموك"،ع٢، م١٤، س١٩٩٨

والامر الاخر الذي نلمسه في التعاريف هو تمجيد العقل وهو المدرك في معرفة الاشياء حينما يتعارض مع نص الوحي يكون له الفضل في التقرير ، والانفتاح الكامل على الكون ، والرفض التام للماضي..

الجذور التاريخية للحداثة

ظهر تيار الحداثة في الغرب نتيجة للتقلبات الفكرية التي مر بها على مدار قرون عديدة كان فيها العقل مشوش المنهج اثر التعاقبات الفكرية والتحولات الاجتماعية التي مر بها حيث تزاحمت عليه المذاهب والفلسفات المختلفة وكل مذهب شيد بنيانه على ركام من خلفه ..

وقد اختلف كثير من الذين أرخوا ونظروا للحداثة الغربية حول بداياتها الأولى ، وعلى يد مَن من كتابهم ظهرت ونشأت ، فمنهم من يعتبر بدايتها في باريس مع سنة ١٨٣٠م ، ويرى الاخر انها بدأت في السبعينيات من القرن التاسع عشر ، ورأى آخرون انها انطلقت بعد سنة ١٨٨٠م ، اما كيرمود فيقول ان الحداثة الحديثة اسس لها

في السنوات العشر الاولى من القرن العشرين ، ورغم ذلك يتفق بعضهم على أن إرهاصاتها المبكرة بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي على يدي " بودلير " الفرنسي صاحب ديوان " أزهار الشر " من الناحية الفنية الأدبية ، والذي نادى بالغموض في الأحاسيس والمشاعر ، والفكر والأخلاق ، كما قام المذهب الرمزي الذي أراده على تغيير وظيفة اللغة الوضعية بإيجاد علاقات لغوية جديدة تشير إلى مواضع لم تعهدها من قبل ، وكان ويطمح أيضا إلى تغيير وظيفة الحواس عن طريق اللغة الشعرية ، لذا لا يستطيع القارئ ، أو السامع أن يجد المعنى الواضح المعهود في الشعر الرمزي [1] ..

ومما لا جدال فيه أن الحداثة كمذهب أدبي تجديدي قامت في أساسها الأول على الغموض وتغيير اللغة ، والتخلص من الموروث بكل أشكاله ، وأجناسه

---

[1] الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر/ الدكتور عبد الحميد جيدة/ص١٢١

وتجاوزه للسائد والنمطي ، وكان بودلير الذي نمت وترعرعت على يديه بذرة الحداثة من أسوأ ما عرفت الآداب العالمية خلقا وإمعانا في الرذيلة ، وممارسة لكل ما يتنافي مع الأخلاق والعقيدة . يقول عنه مصطفى السحرتي في مقدمة ترجمة ديوان أزهار الشر لبودلير " لقد كانت مراحل حياته منذ الطفولة نموذجا للضياع والشذوذ ، ثم بعد نيل الشهادة الثانوية قضى فترة في الحي اللاتيني ، حيث عاش عيشة فسوق وانحلال ، وهناك أصيب بداء الزهري ، وعاش في شبابه عيشة تبذل ، وعلاقات شاذة مع مومسات باريس ، ولاذ في المرحلة الأخيرة من حياته بالمخدرات والشراب " ، ويقول عنه الشاعر إبراهيم ناجي مترجم ديوان أزهار الشر " لإن بودلير كان يحب تعذيب الآخرين ويتلذذ به ، وكان يعيش مصابا بمرض انفصام الشخصية " ، ولم يكن الطعن على شخصية بودلير متوقفة على بعض الشعراء والنقاد العرب الذين عرفوه من خلال شعره ،

وعايشوه في مرحلة زمنية معينة في النصف الأول من القرن العشرين ، بل كان لأبناء جلدته أقوالا وآراء كثيرة حول هذه الشخصية الحية الميتة ، يقول عنه أحد كتاب الغرب : " إن بودلير شيطان من طراز خاص " . ويقول عنه آخر : " إنك لا تشم في شعره الأدب والفن ، وإنما تشم منه رائحة الأفيون " [1] وقد عرف بودلير إضافة إلى ما عرف عن شخصيته الذاتية بنزعته الماركسية الثورية الفردية التي لا تنسجم مع المثل والمبادئ التي ينادي بها عصره آنذاك ..

ثم أعقب بودلير رائد من رواد الحداثة في الغرب وهو رامبو الذي لا يقل شأنا عنه في المناداة إلى الهدم العقلاني لكل الحواس ، وقد تعاقب ركب الحداثيين في الغرب ، وسلكوا نفس الطريق الذي بدأه بودلير ، ورامبو ، وساروا على نهجهما ، ومن هؤلاء مالارمييه ،

---

[1] الحداثة في الاسلام/عوض القرني/ص٢٣

وبول فاليري ، حتى وصلت الحداثة الغربية شكلها المتكامل النهائي على يد الأمريكي اليهودي عزرا باوند ، والإنجليزي توماس اليوت .

وغدت الحداثة الغربية سلسلة متصلة الحلقات يتناقلها اللاحقون عن السابقين ، وهي إلى جانب ذلك متصلة شديدة الاتصال بما سبقها من وجودية ورمزية وسريالية ومادية جدلية ومادية تاريخية وواقعية واشتراكية علمية وبرناسية ، ورومانسية ، وبكثير من الأفكار والمبادئ والتيارات التي كانت قاعدة لها ، ومنطلقا فكريا مدها بكل ما حملته تلك المذاهب من فكر وأيدلوجيات ، وتمرد على كل ما هو سائد وموروث ، وتجاوزت حدود الأدب واللغة ليطال الدين والأخلاق والقيم والعلم . فهي تحطيم للماضي والحاضر والمستقبل .

وهكذا نمت الحداثة الغربية وترعرعت في أوحال الرذيلة ، ومستنقعات اللاأخلاق ، وأينعت ثمارها الخبيثة

على أيدي الشيوعيين من أمثال نيرودا ، ولوركا ، وناظم حكمت ، وفتشنكو ، والوجوديين أمثال سارتر ، وسيمون دي بوفوار ، وألبير كامو ، وآتت أكلها على أيدي الجيل المنظر والداعم لها والمحفز على السير في ركابها من أمثال ألوي أراجون ، وهنري لوفيفر ، وأوجين جراندال ، ورولان بارت ، ورومان ياكوبسون ، وليفي شترواس ، وبياجيه ، وغيرهم كثر..

ثم تسللت الحداثة الغربية إلى أدبنا ولغتنا العربية وفكرنا ومعتقداتنا وأخلاقياتنا كما تتسلل الأفعى الناعمة الملمس لتقتنص فريستها ، لن تشعر الفريسة بها إلا وهي جثة هامدة ، هكذا كان تسلل الحداثة إلى عقول معتنقيها وروادها وسدنتها من أدباء ونقاد ومفكرين على امتداد الوطن العربي . وهي كغيرها من المذاهب الفكرية ، والتيارات الأدبية التي سبقتها إلى البيئة العربية ، حيث وجدت لها في فكرنا وأدبنا العربي تربة خصبة ،

وسرعان ما انتشرت بين دعاتها من العرب ، أمثال غالي شكري ، وكاهنها الأول والمنظر لها على أحمد سعيد المعروف " بأدونيس " ، وزوجته خالدة سعيد من سوريا ، وعبد الله العروي من المغرب ، وكمال أبو ديب من فلسطين ، وصلاح فضل ، وصلاح عبد الصبور من مصر ، وعبد الوهاب البياتي من العراق ، وعبد العزيز المقالح من اليمن ، وحسين مروة من لبنان ، ومحمود درويش ، وسميح القاسم من فلسطين ، ومحمد عفيفي مطر ، وأمل دنقل من مصر ، وعبد الله القذامي ، وسعيد السريحي من السعودية وغيرهم .

وقد أشار غالي شكري في كتابه الشعر الحديث إلى أين إلى الروافد التي غذت بذرة الحداثة العربية فقال : " كانت هذه المجموعة من الكشوف تفصح عن نظرة تاريخية تستضيء بالماضي لتفسر الحاضر ، وتنبئ بالمستقبل . فالمنهج الجدلي ، والمادية التاريخية يتعرفان

على أصل المجتمع ، ثم يفسران أزمة العصر ، أو النظام الرأسمالي ، ثم يتنبآن بالمجتمع الاشتراكي الذي ينعدم فيه الصراع الطبقي " ، ويقول أدونيس في كتابه الثابث والمتحول كما ذكر الدكتور محمد هدارة في مقال له نشر في مجلة الحرس الوطني السعودي : " لا يمكن أن تنهض الحياة العربية ، ويبدع الإنسان العربي إذا لم تنهدم البنية التقليدية السائدة للفكر العربي ، ويتخلص من المبنى الديني التقليدي الاتباعي " . وهذه الدعوة الصريحة والخبيثة في حد ذاتها دعوة جاهرة للثورة على الدين الإسلامي ، والقيم والأخلاق العربية الإسلامية ، والتخلص منها ، والقضاء عليها .

ثم يقول أدونيس أيضا في مقابلة أجرتها معه مجلة فكر وفن عام ١٩٨٧ م :

" إن القرآن هو خلاصة ثقافة لثقافات قديمة ظهرت قبله . وأنا أتبنى التمييز بين الشريعة والحقيقة ، إن

الشريعة هي التي تتناول شؤون الظاهر ، والحقيقة هي التي يعبرون عنها بالخفي ، والمجهول ، والباطن ، ولذلك فإن اهتمامي بالمجهول ربما يأتي ، ويتغير باستمرار ، وهذا ما يتناقض مع الدين " .

ويتضح أن رواد الحداثة لم يكونوا دعاة للتجديد بمفهومه المتعارف عليه في اللغة ولا يعني بالأدب والشعر كما يدعون ، وإنما هم دعاة للهدم والتخريب ، كما يعلنون عن ذلك صراحة في كتبهم النقدية ودواوينهم الشعرية ومؤلفاتهم بشكل عام ، فقد ضل كثير منهم يخلط بين الحداثة كمنهج فكري ، يدعو إلى الثورة والتمرد على الموروث والسائد والنمطي بأنواعه المختلفة عقيدا ولغة وأدبا وأخلاقا ، وبين المعاصرة والتجديد الذي يدعو إلى تطوير ما هو موجود من ميراث أدبي ولغوي ، والإضافة عليه بما يواكب العصر ، ويتواءم مع التطور ، منطلقا من ذلك الإرث الذي لا يمكن تجاوزه

بحال من الأحوال ، فهو عنوان الأمة ، ورمز حضارتها ، والأمة التي لا موروث لها لا حضارة لها ، وجديدها زائف ممجوج ان لم يكن مستندا الى معايير الفكر والمنهج...

مابعد الحداثة او الحداثة البعدية

بعدما كان الخلاف قائما على التوحيد في مفهوم الحداثة امتد ليكون اكثر التباسا واعمق اختلافا لمصطلح مابعد الحداثة (Post.Modernism) وهل هو امتداد للفكر الحداثوي ، او منهجا مقاطعا وناقدا ، خاصة بعد تعدد مدلولاته وتداخل افكاره ، فهناك من يعيد المفردة إلى المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي عام ١٩٥٤م، وهناك من يربطها بالشاعر والناقد الأمريكي تشارلس أولسون في الخمسينيات الميلادية، وهناك من يحيلها إلى ناقد الثقافة ليزلي فيدلر، ويحدد زمانها بعام ١٩٦٥م. على أن البحث عن أصول المفردة أفضى إلى اكتشاف استخدامها قبل هذه التواريخ بكثير، كما في استخدام جون واتكنز تشابمان لمصطلح " الرسم مابعد الحداثي" في عقد

١٨٧٠م، وظهور مصطلح مابعد الحداثة عند رودولف بانفتز في عام ١٩١٧[١]..

وقد كانت فترة الستينيات مسرحا لبروز النظريات والتيارات والمدارس الفلسفية والفكرية والأدبية والنقدية والفنية التي ظهرت فيما بعد الحداثة البنيوية وقد شكلت التحولات الحضارية الجديدة مناخا فكريا لولادة انظمة ومناهج تتسم بالوعي الانساني الجديد المناهض للفكر الحداثوي وبالاخص حينما عجزت عن تقديم ايدلوجية للتصحيح بعيدة عن الهدم والتقويض والقطيعة والاستعلاء ، فكانت فكرة مابعد الحداثة مختلفة جذريا عن مفاهيم الحداثة كما كان يراها الفيلسوف الالماني يورغن هامبرس بقوله : (أن مشروع الحداثة لم ينته أبدا بعد، حيث يواصل هذا المشروع سعيه لتحقيق أهدافه

---

[١] دليل الناقد الأدبي/ د.سعد البازعي وميجان الرويلي/ المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ، سنة ٢٠٠٠م، ص:١٣٨

(وبهذا، يقصد هابرماس قيم تنوير العقل والعدالة الاجتماعية) ، ويعد مصطلح (مابعد الحداثة) (والكلمات المشابهة له) أيضا في نظر الكثيرين أنه يشير، بصفة عامة، إلى دور وسائل الإعلام في المجتمعات الرأسمالية في أواخر القرن العشرين..

وأيا كان استخدامه المفضل، فمن الواضح أن نظرية تفسير التطورات الاجتماعية والثقافية عن طريق السرديات الكبرى لم تعد ممكنة أو مقبولة، وأنه لم يعد ممكنا للأفكار أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا مع الواقع التاريخي..

وقد تبنى ديفيد كارتر ان كل شيء هو النص والصورة، وبالنسبة للكثيرين ايضا ، حيث يحاول انصار الحداثة ان يصوروا العالم كالذي يتم تصويره في فيلم (الماتريكس) ، هناك نجد الحياة البشرية تقلد الآلات التي تسيطر عليها، إقناع المشاهد بعالم مابعد الحداثة، لإقناعه

بكابوس من عالم الخيال العلمي، فهذا العالم هو بمنزلة استعارة أو مجاز عن حالة الإنسان الحالي)[1]، وهناك من الباحثين والدارسين من يربط (مابعد الحداثة) بفلسفة التفكيك والتقويض، وتحطيم المقولات المركزية الكبرى التي هيمنت على الثقافة الغربية ، يقول دافيد كارتر:

((وتعبر هذه المواقف من (مابعد الحداثة) عن موقف متشكك بشكل جوهري لجميع المعارف البشرية، وقد أثرت هذه المواقف على العديد من التخصصات الأكاديمية وميادين النشاط الإنساني (من علم الاجتماع إلى القانون والدراسات الثقافية، من بين الميادين الأخرى). وبالنسبة للكثيرين تعد (مابعد الحداثة) عدمية على نحو خطير، فهي تقوض أي معنى للنظام والسيطرة المركزية للتجربة.

---

[1] النظرية الأدبية / ديفيد كارتر/ ترجمة: د. باسل المسالمه، دار التكوين، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠م، ص:١٣٠.

فلا العالم ولا الذات لهما وحدة متماسكة)) [١] ، لذلك حاول البعض من المفكرين تحديد مفهوم لما بعد الحداثة فقال الدكتور عبد الوهاب المسيري (تعني في واقع الأمر النهاية: نهاية التاريخ، ونهاية الإنسانية، ونهاية السببية ونهاية المحاكاة ونهاية الميتافيزيقا ونهاية التفسير)[٢] وفي محاولات لتصوير ما بعد الحداثة يرى أحمد حجازي أنها (حركة نشأت في أحشاء الحداثة ذاتها لنقدها أو للتواصل معها والبحث عن البديل)[٣] ، وقال ديفيد هارفي:(هي الوضع الذي وجد العالم به نفسه بعد تحطم مشروع الأنوار) [٤] ، أما ديك هبدايج فقد اعتبرها (حالة من فقدان المركزية ومن التشعب والتشتت، نساق فيها من مكان إلى مكان) [٥] ،وفي محاولة تعريفية أكثر

---

[١] المصدر السابق/ص١٣١

[٢] الحداثة وما بعد الحداثة/فتحي التريكي/ص٨٧

[٣] علم اجتماع الأزمة/ نقلا عن "ما بعد الحداثة"/ لعلي خريسان/ ص٢٠٥

[٤] المصدر السابق/ ص٢٠٥

[٥] المصدر السابق/ ص٢٠٥

وضوحا وتفصيلا قال عبد الوهاب المسيري: (مصطلح "ما بعد الحداثة"، مصطلح نفي سلبي، وهو ترجمة لمصطلح (post-modernisme)، وأحيانا يطلق على مصطلح ما بعد الحداثة تعبير"ما بعد البنيوية"، باعتبار أن فلسفات ما بعد الحداثة قد ظهرت بعد ظهور وسقوط (الفلسفة البنيوية)، ويكاد مصطلح ما بعد الحداثة يترادف ومصطلح "التفكيكية"، وللتمييز بينهما نقول إن "ما بعد الحداثة" هي الرؤية الفلسفية العامة، أما "التفكيكية" فهي بالمعنى العام أحد ملامح وأهداف هذه الفلسفة، فهي تقوم بتفكيك الإنسان كما أنها منهج لقراءة النصوص يستند إلى هذه الفلسفة) [١]..

اما مفهوم مابعد الحداثة فهي عند روادها ومفكريها لها مسالك مختلفة من حيث الرؤى في تحقيق المنافع..

---

[١] المصدر السابق/ ص٢٠٥

فهذا الفيلسوف الفرنسي جان بودريار(١٩٢٩ – ٢٠٠٧) الذي اشتهر بتوجهه للتكنولوجيا الحديثة والإعلام ومن ثم، فقد أدلى جان بودريار بمجموعة من المفاهيم ، كالحقيقة العائمة ، ومافوق الحقيقة، والاهتمام بالخيال العلمي ، والعناية بالعوالم الافتراضية غير المتحققة ، ثم انتقد العلاقة بين الدال والمدلول عند فرديناند دو سوسير، حيث أنكر (كجاك ديريدا) وجود معنى واضح ، بل قال بالدلالات العائمة أو المعنى المغيب وبالتالي ، فقد رفض التمييز بين المظاهر والحقائق الكامنة وراء هذه المظاهر وبالنسبة له، انهارت أخيرا الفوارق بين الدال والمدلول ، ولم تعد العلامات تشير إلى مدلولات بأي معنى معقول ، حيث يتكون العالم الحقيقي من الدلالات العائمة ، وقد شرح بودريار هذه الأفكار في عمله (التظاهرات والمحاكاة)[1] وقد انكر

---

[1] النظرية الأدبية / ديفيد كارتر/ ترجمة: د. باسل المساله، دار التكوين/ص:١٣٢.

وجود الحقيقة مادامت ترتبط ارتباطا وثيقا باللغة والخطإ والظن والمبالغة المجازية والبلاغة التخييلية ووسائل الإعلام ، ونادى بمفهوم (مافوق الحقيقة) حيث يتولد مفهوم مافوق الحقيقة ، اي يكون شيء ما حقيقيا فقط عندما يتحرك ضمن نطاق وسائل الإعلام ، ولايمكن لأحد أن يعيش أي تجربة إذا لم تكن بصيغة مشتقة وكان شديد التاثر بتكنولوجيا المعلومات والاتصال خاصة مايعرف بتطبيق الخيال العلمي..

اما المفكر جيل دولوز فقد اهتم بالتعددية الفكرية والانفتاح الشامل على الثقافات الاخرى والتفاعل معها بعدما قام بانتقاد الفلسفة وخطاباتها في نشر الوعي والمعرفة ككتابات هيوم وبرجستون ولبتينز وسبينوزا ، وسخر اهدافه الفلسفية من منطلق فهمه للادب والفن والسياسة ، وبعد ذلك تحدث عن الحقل الاجتماعي، وصاغ أنطولوجية ملموسة للفعل والحدث ، وقد آمن

جيل دولوز بالتعددية والاختلاف، بعد أن تأثر في ذلك بأطروحات برجستون الحدسية حول الديمومة والزمان والتعددية ، وقد اهتم دولوز بفلسفة التأسيس في كتابه (الاختلاف والتكرار)، وتحدث عن التعددية في إطار الاختلاف ، ومن ثم، يربط فلسفة التأسيس بالديمقراطية كفضاء لتحقيق الاختلاف، ويعتبر الديموقراطية النظام المناسب للتطور الحالي للمجتمع ..

في حين انطلق جاك ديريدا (والذي يعتبر من اهم فلاسفة مابعد الحداثة) في تاصيل منطلقاته الفكرية من حيث مفهوم تفكيك الثقافة الغربية وتقويض مقولاتها بالنقد والتشريح بعد ثورته على المقولات البنيوية كالمدلول والصوت والنظام والبنية وغيرها من المفاهيم داعيا لتعويض الصوت بالكتابة ، مع رفضه القاطع للقواعد والتعاريف والمعايير والمنهجيات الثابتة الي تؤسس لبناء مدرسة ذات طابع منهجي ، لذلك انحسرت

رؤيته في كون التفكيكية منهجية وليست منهجية، لها خطوات وليس لها خطوات، هي ما بين بين، بين الداخل والخارج ، ما يهمها هو تفكيك الفكر والنص والخطاب عبر آلية التشتيت والتقويض والهدم لبناء المعاني المختلفة والمتناقضة، والتشكيك في المسلمات اليقينية، ودحضها عن طريق النقد والتشريح والاختلاف..

في حين يقدم المفكر الفرنسي جان فرانسوا ليوتار، الذي أنكر الحقيقة مثل نيتشه سيما في كتابه (حالة مابعد الحداثة) ففي هذا الكتاب ، يجادل ليوتار أن المعرفة لايمكنها أن تدعي أنها تقدم الحقيقة في أي معنى مطلق ، لأنها تعتمد على ألاعيب اللغة التي هي دائما ذات صلة بسياقات محددة ، وهنا نجد أن ليوتار مدين بالفضل الكثير لنيتشه وفيتغنشتاين ، حيث يدعي أن أهداف التنوير في تحرير الإنسان، وانتشار المنطق، لم ينتج سوى

نوع من العجرفة العلمية ، وقد رفض يورغن هابرماس قبول هذا التقييم لمصير أهداف التنوير، حيث يعتقد أنها لاتزال قابلة للحياة [1] ، هذا، وقد ثار ليوتار على التمركز العقلي على غرار رواد الفلسفة التفكيكية (جاك ديريدا مثلا)، منتقدا هيمنته، واستغلاله، وانغلاقه، وسطوته على الفن والحياة، حيث يقدم ليوتار ملاحظة في كتابه (الخطاب والشخصية) بأن البنيوية قد تجاهلتها، ويناقش ليوتار مستشهدا بفوكو أن ما يعد تفكيرا عقلانيا من قبل المفكرين الحداثيين هو، في الواقع، شكل من أشكال السيطرة والهيمنة ، وأهم ما يطرحه جان فرانسوا ليوتار في إطار (مابعد الحداثة) النقدية الأدبية هو التخلص من القواعد النظرية والمعايير التطبيقية في لحظة الممارسة النقدية، بمعنى أن يتحرر النقد الأدبي من الالتزام بالقواعد المنهجية والمعايير المسبقة ، وفي هذا

---

[1] النظرية الأدبية / ديفيد كارتر/ ترجمة: د. باسل المساله، دار التكوين / ص١٣٤

النطاق، يقول دافيد كارتر:(وأحد تلميحات ليوتار عن (مابعد الحداثة)، وهو أمر هام بالنسبة للإجراءات التي اعتمدها النقد الأدبي، هو أن التحليل يجب أن يمضي قدما دون أي معايير محددة مسبقا، حيث يتم الكشف عن المبادئ والقواعد المنظمة في عملية التحليل) [1]..

ولم يكن ثمة فاصل مابين الحداثة وما بعدها من حيث الايدلوجية في اثبات الموضوعية والمنهج ، يبقى التشويش والايهام يلف حبائلها، بل يمكنني ان اقول لا وجود لما بعد الحداثة حداثة ، او الحداثة البعدية بالمفهوم الاصطلاحي المجرد ، فبعد البعد بعد ، وتستمر في وجودها المتسلسل ، وفي طبيعة الحال لم تزل الدراسات فتية في مصطلح الحداثة البعدية في الثقافة العربية ، ويرجع ذلك الى عوامل عدة كان في مقدمتها بان هناك من يرى وبخلاف التصورات السابقة، أن لا فرق بين

---

[1] المصدر السابق/ ص١٣٤

الحداثة وما بعدالحداثة بالنسبة إلينا في المجال الإسلامي فيتم ايراد بحثها عرضا بل هي امتداد لفكرة الحداثة ، وكذلك هناك من يرى أن فكرة مابعد الحداثة هي فكرة تعبر عن خصوصية في الشأن الأوروبي، حيث اللامنهجية وحالة الاضطراب الفكري والتفكيك البنيوي والدلالات العائمة وغير ذلك من مرتكزات مابعد الحداثة ،وكذلك فهي ما زالت فكرة غامضة ومبهمة ومضطربة، تتباين في داخلها وتتعارض وجهات النظر بين الأوروبيين أنفسهم أصحاب هذه الفكرة، وينقسمون حولها ويتنازعون، ولم تتحددلها هوية واضحة ومحددة تعرف بها، وتفهم من خلالها.

اذن ما بعد الحداثة مناقضة لنفسها، بإطلاق القول إنه ليس هناك حقيقة بل هناك مابعد الحقيقة ، وهذا في حد ذاته حقيقة يطلب من كل الناس التسليم كما نادى بها المفكر الفرنسي جان فرانسوا ليوتار ، وكذلك سعي

رواد مابعد الحداثة لاثبات عدم مصداقية العقل ، بحجج واثباتات عقلية ، كما انها تحاول إبعاد هيمنة إيديولوجية محددة لكنها في الواقع تعرض على العالم هيمنتها هي كإيديولوجية ومنهج يمثل افق التطور الحضاري الفكري المتمثلة بالخيال العلمي لذلك نحتاج الى دراسة مستقلة لمفهوم الحداثة البعدية ومرتكزاتها ومبادئها وسياقها المعرفي والابستمولوجي ، ومدى اختلافها وائتلافها مع النظرية الاسلامية وغير ذلك ..

الغموض والتشويش المنهجي

لم تك ثمة نافذة يمكن النظر من خلالها الى باحة الحداثة وماحوته من اسس ومرتكزات ، ليعطي الشرعية على تسويقها بالمنهج القائم على المباني والقواعد بل باتت تلفعه بعباءة الغموض ، وتدثره بشعار التعتيم والضباب ، حتى ان المحقق في اركان بحوث مناصريهم لايعلم اين المقصد والى اي السبيل ، فلم يكن للعقلانية مجال في رسم النصوص وبيان الخطابات ، طبعا وعند الاتجاه للتعرف على بدايات ظهوراتها في المجتمع العربي ، يتبين لنا ان تلك التركيب والجمل قد سمحت لنفسها بالدخول على النصوص الادبية ، ثم حاول انصار الحداثة تطبيقها على الجوانب الاخرى المختلفة مسايرة مع التجديد والانفتاح وقوة تحرر الفكر من الايدلوجيات التقليدية والميثولوجيا البيضاء ، فكان المسار الذي انتهجه الحداثيون في فهم الاشياء والحكم عليها هو (العلم

وموازينه المادية) طبعا العلم الذي لايخضع للتحليل والنقد والتقويم ، ولا يعتد بشيء غيره من دين أو تراث أو أي معيار آخر ، هذه هي الفكرة باختصار والتي تمثل مبدءا بارزا ومرتكزا واضحا من مرتكزات الحداثة ، كما يقول احدهم (لقد أدخل التقدم المستمر للعلوم والتقنيات، وثورة التكنولوجيا إلى الحياة الاجتماعية عامل التغيير المستمر والصيرورة الدائمة التي أدت إلى انهيار المعايير والقيم الثقافية التقليدية، وفي ظل هذه الصيرورة الاجتماعية بمختلف اتجاهاتها تحدد السياق العام لمفهوم الحداثة بوصفه ممارسة اجتماعية ونمطا من الحياة يقوم على أساسي التغيير والابتكار) [1]..

وكان النطاق الشعري هو نقطة البدء ، حيث اتهم الحداثيون أهل اللغة بأنهم يهتمون بشكل القصيدة دون

---

[1] مقاربات بين مفهوم الحداثة وما بعد الحداثة/ص١

مضمونها، وأنهم عاجزون عن تصور قصيدة خالية من الأوزان فيقول ديزيره سقال:

(لابد لنا من أن نؤكد أن أكثر ما في التجربة الشعرية الحديثة تحديا هو الثورة على الشكل، لأن الكلاسيكيين عاجزون عن تصور شعر عربي بدون الأوزان الخليلية، إنهم يرون الأصالة في الشكل، وبما أن المضمون قد شهد ثورة، فقد كان لابد من ثورة في الشكل أيضا، ونحن نرى أن ثورة المضمون هي التي استدعت ثورة الشكل لا العكس) [1]..

وهذا اللف والدوران لا يغني ، حيث إن الحداثيين حاربوا الشعر بأبحره العربية الخليلية فقضوا في شعرهم عليها، وحاربوا المضمون العربي الإسلامي الأخلاقي بالمجون والإلحاد، فأصبح شعرهم لا شكل له

---

[1] حركة الحداثة آراؤها وانجازاتها/ الدكتور ديزيره سقال/دار الصداقة العربية /ص١٨.

ولا مضمون ، حيث اهتموا بتصنيف الجملة الى الصياغة التركيبية والاستبدالية كما صاغها دوسوسير وولد منها نظريته اللغوية التي تميزت بنحوها الصوري ذي الصياغة التجريدية البنيوية والتي ثار عليها فيما بعد تشومسكي في نظريته النحوية التوليدية التحويلية التي أثمرت هي الأخري عدة نماذج نحوية بدءاً بنموذج البني التركيبية سنة ١٩٥٧ ، الذي كان بنيوياً توليدياً كما أسلفنا ، لأنه أبعد فيه الدلالة ، ولم يتميز عن النحو البنيوي إلا بالمفاهيم الجديدة ...

وامتد التقويض ليشمل كافة الحقول المعرفية عن طريق التشتيت والتفكيك والتشكيك، كالية للطعن ، فامتاز هذا الاتجاه الذي لا يعدو ان يكون مسلكا ومنهجا، بغموض الاراء ، وابهام الدلالات والتباسها..

هل الحداثة منهج فكري

يكاد الاختلاف يؤسس لنظريات متقاربة المعنى ، متغايرة المفهوم والدلالة في الكيفية التي يعرضها علماء المنهج لوضع تعريف خاص بالمنهج العلمي ، فيقرر (رومل) ان المنهج العلمي هو فحص دقيق يهدف لاكتشاف معلومات او علاقات جديدة ، بينما يذهب (دالين) الى وصفه بالمحاولة الدقيقة للتوصل الى حلول للمشكلات التي تؤرق البشرية ، في حين يؤكد (تود) ان المنهج يختلف باختلاف انواع البحث ومجالاته واهدافه ووسائله ، الامر الذي يعني وجوب عدم الاهتمام بطرح تعريف عام له ..

اذن يمكن القول بان المنهج بشكل عام ، هو معيار ملائم للتمييز بين العلم واللاعلم ، وهو التعريف الذي تسالم عليه علماء المنهج (وان كان لا يخلو من اشكال) ، فلا تكون قيمة للمعرفة ان لم تخضع لمعايير وتطبيقات قواعد المنهج العلمي ، لتؤدي غايات ومقاصد المنهج وفق القواعد والاسس المنطقية..

وهنا ينبغي التفريق وعدم الخلط الناشئ من اشتباه البعض بين مفهومي البحث العلمي والمنهج العلمي ، فالمراد من المنهج – بغض النظر عن كونه علميا او غير علمي – مجرد فكرة تتم صياغتها بجملة من القواعد العامة التي يتوجب تطبيقها من قبل ممارسي هذا النشاط اما البحث العلمي فهو تطبيق عملي وتحقيق لفكرة ذلك النشاط او المنهج..

لذلك فعندما يريد الباحث العلمي سلوك نشاط او منهج معين ، ان يفرق بين تلك المناهج والمقاصد ، فتعدد الابحاث العلمية منوط بتعدد مناهجها ووسائلها الخاصة في تحقيق ذلك السلوك او النشاط فلا ينبغي التعميم ، وكما يقول في هذا الصدد الدكتور عبد الرحمن بدوي :

(ان المناهج العملية لا تتعلم الا في المعامل حيث يكون القائم بالتجريب في اشتباك مع مشاكل الطبيعة ، ولا بد للمجرب ان تختلف عمليات البرهان لديه الى غير نهاية وفقا للعلوم المختلفة ، اما روح صاحب التاريخ الطبيعي ليست بعينها روح صاحب علم وظائف الاعضاء ، وروح الكيميائي ليست روح الفيزيائي) [1]..

اذن المناهج تختلف باختلاف العلوم ولا يوجد منهجا واحدا مشتركا لكل النشاطات ، بل لابد من

---

[1] مناهج البحث العلمي /الدكتور عبد الرحمن بدوي/وكالة المطبوعات الكويت١٩٧٧/ص٨

السير وفق الخطوات العقلانية لتحقيق الملائمة بين المنهج والنشاط الذي عقد لاجله ، ولابدية ان يحوي على انجع الوسائل لتحقيق تلك الغايات المرام حصولها ..

فلو ورد احتمال ان يفضي تطبيقه للوصول الى غاية عقده باقل من تطبيق اخر للوصول الى تلك النشاطات التي عقد لاجله ، فقد بطل استدلاله وسقط احتمالية نهجه وكان الاخر هو المقصد ، لانه ليس بانجع الوسائل التي يمكن من تطبيقها تحقيق مقاصده والغاية التي عقد لاجله..

فالحداثة المستوردة فاقدة للمعايير والضوابط المعرفية لتحقيق غايات ومقاصد عقد لاجلها منهجا ، بل هي جمع من المفاهيم تداولها روادها في زوايا افكارهم قد افتقرت لخطوات المنهج العام ، فلا تجد فيها مشكلة محددة تمكن الباحث في هذا المنهج من استقصاء حدودها وتحديد علاجاتها ، وفق الاسس المنطقية وبالتالي تعطي

للباحث المكنة من اعادة صياغة الاشكالية ، ليبدأ بعدها من اقتراح الحلول في عالم الافتراض ، ثم اختيار الفرض المقترح وفق الدراسات التي تخضع لمعايير العقل والمنطق بعيدة عن خطأ العاقل في التطبيق وصحة المعقول..

العقلانية معيار لتقويم الحداثة

حينما نحاول استنطاق الحكم على مفهوم الحداثة لابد من اخضاعه للمرشح النقدي المتمثل بمعيار العقلانية بمفهومها العام ، حيث يكون للعقل الهينمة في اصدار قرار التصويب او الوقوف على نواحي الاشتباه والوهم لذلك فان المعرفة الحقيقية تحصل عن طريق العقل ، وماانكر ذاك الا السفسطائيين حيث كانت الدعوة قائمة على عدم مقدرة الانسان من معرفة الواقع ثم جاء اخرون وكانا يسمون بالشكاكين قائلين بامكان المعرفة الحقيقة من خلال الحس واخرين قالوا بالتجربة ، ذلك الصراع نشأ منذ بدأ العقل الانساني بالتفكير المنظم والممنهج وامتد الى يومنا هذا ، وشيدت العديد من المدارس المعرفية بنيانها على تباين الرؤى ، وكل يرى انه

الاصوب بحكم عقله وما توصل اليه من نشاطات في دوائر تفكيره ..

لكن علينا بيان ان العقل انما يصل الى الواقع ويعرفه اذا استنبط حكما من خلال البرهان الصحيح ومن امارات الحكم الذي يشترك فيه جميع العقلاء ، مع بيان ان للعقل اصطلاحات عدة لكنه في الاصطلاح العام (هو القوة الموجودة في الانسان التي يستطيع بفضلها ان يميز بين القبيح والحسن) ، لكن العقلاء يختلفون في احكامهم ، فعقل يحكم بكذا ، واخر يحكم بحكم مضاد له ، لكن الذي يدرك الواقع منها هو مايشترك بينهما وهو مايحكم به كل عاقل ولا يحتمل ان يكون بخلافه كالاحكام البديهية للعقل العملي كقبح الظلم وحسن العدل ، والاحكام المعروفة في العقل النظري كالرياضيات والحساب والهندسة

ومن هنا ياتي دور علم خاص يميز بين المدركات واحكام العقل النظري والعملي ، وكيفية الاستنتاج الصحيح الا وهو علم المنطق ، فعلم المنطق آلة قانونية تعصم بمراعاتها الذهن من الوقوع في الخطأ ، وهو الفيصل في جميع الاستنتاجات العقلية ...

لذلك فان اصحاب المسلك الحداثوي يرون بان العقلانية مبتدأ الحداثة وخبرها ولا توجد حداثة من غير أساس عقلاني كما يؤكد آلان تورين ، والحداثة كما يرى تورين (هي عملية انتشار المنتجات العقلية والعلمية والتكنولوجية وهي بالتالي حالة رفض للتصورات القديمة التي تقوم على أساس ديني طوباوي وتمثل في الوقت ذاته حالة قطيعة مع الغائية الدينية التقليدية، إنها انتصار للعقل في مختلف مجالات الحياة والوجود، في مجال العلم والحياة الاجتماعية، وغاية الحداثة هي بناء مجتمع

عقلاني. وهذا يعني أن الحداثة هي حالة ولادة جديدة لعالم يحكمه العقل وتسوده العقلانية) [1] ..

وبعبارة أخرى الحداثة كما يصورها آلان تورين ، وضعية اجتماعية وحضارية تجعل من العقل والعقلانية المبدأ الأساسي الذي يعتمد في مجال الحياة الشخصية والاجتماعية ، فان المعيار في عقلانية الحداثة هو التطور في الانتاج العقلي والتكنولوجي والرفض المحكم للعقل الديني الطوبائي القائم على التقليدية ، من دون دراسة ونقد موضوعي بل ان اصل فكرة الدين كما يراها ، هي تقويض للتقدم المعرفي والاجتماعي ، وهذا يقتضي وجود حالة رفض لجميع العقائد والتصورات وأشكال التنظيم الاجتماعي التي لا تستند إلى أسس عقلية أو علمية ، وهذا هو التصور الذي اعتمدته فلسفة التنوير في القرن الثامن عشر والتي نادت بوجود الإنسان على

---

[1] نقد الحداثة / آلان تورين /ترجمة انور مغيث/المجلس الاعلى للثقافة بمصر/ص٢٩

أساس التوافق مع العقل والعقلانية ، وذلك سعيا إلى تحرير الإنسان من العبودية والظلم ومن المخاوف الأسطورية والجهل والتسلط وقد اتجهت هذه الحركة إلى إزالة العقبات التي تقف في وجه المعرفة العلمية.

لم تستطع الحداثة بنزعتها العقلانية ومغامراتها العلمية أن تحقق الغايات التي كانت في أصل وجودها ، إن مأساة الحداثة كما يقول تورين "أنها تطورت ضد ذاتها"[1] ، وهذا يعني أنها وجدت من أجل تحرير الإنسان ولكنها وفي سياق تطورها وضعته في أقفاص عبودية جديدة هي عبودية العقل والعقلانية ، لقد أصبحت الذات الإنسانية في سياق هذا التطور موضعا للعلم والعقلانية، وتم استلاب هذه الذات من مقومات وجودها الإنسانية.

---

[1] المصدر السابق / ص١٢٩

لقد أعلن جان جاك روسو J.J.Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨) زعيم النزعة الطبيعية، في القرن الثامن عشر، عن مسالب الحداثة ومخاطر العقلانية الصارمة التي اجتاحت العمق الإنساني واستلبت المشاعر السامية للإنسان. وقد أكد هذه الملاحظات في مختلف أعماله بدءا من (العقد الاجتماعي Le contrat (social وانتهاء بكتابه (إميل Emile)...

يهاجم روسو بشدة التقدم العلمي الذي أدى إلى تشويه الجانب الإنساني في الإنسان، ونادى بإصلاح التربية والقيم والمؤسسات السياسية والدين من أجل الإنسان في أعمق مضامينه الإنسانية ، وعلى أساس ذلك يقول كانت إن (روسو هو نيوتن العالم الأخلاق) [1] ، ففي رسالتيه المشهورتين: (مقالة في العلوم والفنون Le discours sur les sciences et les arts، ومن ثم

---

[1] الجذور النيتشوية لـ"ما بعد" الحداثة/ عصام عبد الله/ص٢٣٨

مقالته في أصل اللامساواة بين البشر Discours sur l'origine de l'inégalité) ، يؤكد روسو على أن الحضارة المادية العقلانية تؤدي إلى تراجع الأخلاق وتراجع القيم الإنسانية وتدفع الإنسان إلى دوائر الاستلاب والاغتراب ، وفي هذا السياق يرى روسو أن المجتمع ليس عقلانيا وأن الحداثة تفسد أكثر مما تقدمه من فوائد ، ومن أجل انتصار العقل والعقلانية يجب التخلي عن الذات الإنسانية بما تنطوي عليه هذه الذات من كرامة وخصوصية ، وهنا يجب على الإنسان أن يخضع لعقله وتأملاته العقلية وذلك على حساب عواطفه ومشاعره وقيمه الخاصة ، طبعا ولسنا بصدد مناقشة في حيثيات تلك الرؤى التي تحمل في جنبتيها ملازم التناقض والتضاد ، لاختلاف المفاهيم وعدم وضوحها في تصورات بناءات واقعية عن الجانب العقلي والذاتي للانسان وتعاطيه مع المفاهيم الحداثوية..

فالحداثة تؤكد العقلانية وهي لا تعير الجانب الذاتي الإنساني اهتماما كبيرا، وإذا كان تجاهل الجانب الذاتي في الإنسان يضع الحداثة في وضعية أزمة فإن تغييب الجانب العقلي لحساب الجانب الذاتي يضاعف من حدة هذه الأزمة..

ومن هذا المنطلق فان القيم التي اصطحبت الحداثة في مسيرتها الطويلة ، كانت متمردة على العقل العملي والنظري في جميع الجوانب التي شملتها الموجة الحداثية فعلى الصعيد الاجتماعي فان السلوكيات التي ينتجها الفرد المتلبس بالحداثة ماهي الا دعوة للتغيير ، وثورة على القيم العقلانية ، فاذا ماخضعت للمعيار النقدي العقلي ، يستبان انحرافها على المنهج العقلاني ، وقد نادى الحداثيون بفكرة رئيسة أو مبدأٍ أساس ألا وهو فكرة (مركزية الإنسان) وهي فكرة تجعل الإنسان هو المركز وعقلانيته هي المصدر والمنطلق، وانتهاء بالجسد

واللذة والمتعة ، بغض النظر عن تلك الافكار والمبتنيات ، بل وصل المقام الى حد تاليه الانسان ، يقول الدكتور سعيد الغامدي:

"إن المتأمل في المنظومات التعريفية الحداثية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يجد أنها تنطوي على كامن فكري جوهري بدايته إعلان استقلال الإنسان واكتفاؤه بذاته، ونهايته الوصول إلى تأليهه لتكون الخاتمة بالقضاء عليه (فكرة موت المؤلف) (موت المبدع) (تفكيك الإنسان) ونحو ذلك [1] ..

وعندما نخضع تلك السلوكيات لمعيار العقلانية في مرشح التقويم النقدي نرى ثمار تلك الافكار التي تملئ

---

[1] حوار مع د/سعيد بن ناصر الغامدي – ص ١٣ – بعنوان د/ سعيد بن ناصر الغامدي يقوم الاتجاهات الحداثية العربية – موقع الشبكة الإسلامية على الإنترنت www.islamweb.net. بتاريخ / ٢٠٠٥/٢/٢/١م.

المجتمع الصادح بضرورة الحداثة قد وصل الى الانحلال التام وامتهان الانسان لانسانيته ، والشواهد كثيرة[1]

وكذلك الحال على الصعيد المعرفي ، حيث تنكر فلسفات الحداثة وجود حقيقة يقينية ثابتة ، فجان بودريار - مثلا - ينكر الحقيقة، ويعتبرها وهما وخداعا، كما ذهب إلى ذلك نيتشه (Neits6- e) الذي ربط غياب الحقيقة بأخطاء اللغة وأوهامها ، بينما يربط اخرون الحقيقة بالإعلام الذي يمارس لغة الخداع والتضليل والتوهيم والتفخيم ، وغير ذلك من الافكار والاسس والمرتكزات التي اقام الحداثويون مسلكهم ومرتكزاتهم العامة عليها ..

---

[1] انظر هذه الإحصاءات وغيرها الكثير في الملحق السنوي الصادر عن مجلة البيان بعنوان (العالم في عام رصد رقمي لأحوال العالم) حسن قطامش ط الأولى ٢٠٠٢م - ١٤٢٣هـ..

لكن كما يبدو أن الجميع يتكلم اليوم عن العقل، ولكن قضية العقل والعقلانية لا تتقدم في بلادنا، بل هي في تأخر مطرد لاسيما على المستويات العملية والثقافية والسياسية، في حين تنتشر ثقافة العداء للعقل بسرعة مذهلة حتى بين العلماء والجامعيين ، بحيث صار القصور وتوكيل الآخر ليفكر في مكاننا ونيابة عنا طبيعة ثانية لنا لان تلك الافكار اتسمت بالعناوين البراقة التي تحمل في طياتها النزعة المناهضة للموروث ، وكل تلك النزعات باءت بالفشل لانها عقلانية مستوردة وتفتقر للمنهج العقلاني بالمعنى المنطقي ابتداء من العقلانية التراثية لمحمد الجابري، والعقلانية الكونية لعبد الله العروي، فإلى العقلانية المركبة من (العقلانية الإسلامية والعقلانية الحداثية) والعقلانية ما بعد الحداثية لمحمد أركون الخ وغيرهم من رواد الحداثة العربية ، ولايمكن البحث عن حالة برزخية تدور حول إمكانية تعايش العقلانيات التقليدية مع العقلانيات الحديثة، وتعايش العقلانية

المنشودة مع فضاءات اللاعقلانية المتعددة ، وتصور حالة وسطى تجمع بين العقلانية واللاعقلانية ، وبين العقلانية التقليدية والعقلانية الحداثية، لتخرج العقل الذي يتخبط في تحديد العقلانية المنطقية..

حداثة المجتمع المدني

المجتمع الذي يتسم بالحداثة يقاس من ناحية الاعمال الصادرة عنه تارة ، واخرى بلحاظ بنية النظام الاجتماعي الذي يسوده ، ومن اجل الانطلاق نحو العطاء المنشود في اي تركيبة اجتماعية ، لابد ان يكون الفرد هو العنصر الاساس للعمل الارادي الفردي الذي يولد بدوره منظومة العمل الجماعي ، وهذا مارسمه الفلاسفة في تحدياتهم لبناء المجتمع الامثل ، وقد رسم افلاطون في جمهوريته صورة للمجتمع المدني العادل او الدولة المثالية، حيث تؤسس وحدة الدولة وقوتها على العقل ، ونشأة المجتمع عنده تعود الى حاجة افراد المجتمع التي لايمكن اشباعها الا بالتعاون بين افراده مع بعضهم البعض.

اما ارسطو فقد تحدث في كتابه السياسة عن المجتمع المدني فكان عبارة عن كينونة سياسية اخلاقية وليس عقداً ولا اتفاقاً بل هو نمو طبيعي من الاسرة الى القريةالى دولة المدينة وينظمها الدستور والقانون ، اما الفارابي في (آراء اهل المدينة الفاضلة) يرى ان المجتمع المدني يتطابق مع المجتمع السياسي، فالمدينة الفاضلة هي الدولة الفاضلة ، وعند القديس أوغسطين في كتابه (مدينة الله) تخضع فيه مملكة الارض الى مملكة السماء. فكل سلطة مصدرها الله. والنظام الاجتماعي مستقر طبقاً لارادة الله ، ان المدينة او الدولة عند (مارسيل دوبادوا) وهو من مريدي ابن رشد ذهب في كتابه (المدافع عن السلام) مجتمع كامل القدرة على ان يوفر لنفسه كل ما يحتاج اليه لكي يحيا حياة طبيعية في هذه الدنيا وفي الاخرة..

اما مفهوم المجتمع المجتمع المدني فيذكر لنا الدكتور طالب مهدي الخفاجي رؤيته فيقول : (انه مجموعة التنظيمات التطوعية الحرة، التي تملأ المجال العام بين الأسرة والدولة لتحقيق مصالح افرادها، ملتزمة في ذلك بقيم ومعايير الأحترام والتراضي والتسامح والأدارة السلمية للتنوع والخلاف. وتشمل تنظيمات المجتمع المدني كلاً من الجمعيات والروابط والنقابات والأحزاب والأندية والتعاونيات. اي كل ما هو غير حكومي وكل ما هو غير عائلي او إرثي (من الوراثة). وينطوي مفهوم المجتمع المدني على ثلاثة أُسس او اركان وهي:

١. الفعل الأرادي الحر:ان المجتمع المدني يتكون بالأرادة الحرة لافراده ولذلك فهو غير((الجماعة القرابية)) مثل الأسرة والعشيرة والقبيلة ، ان المجتمع المدني في ضوء ما تقدم هو غير الدولة التي تفرض جنسيتها او سيادتها وقوانينها على من يولدون اويعيشون

على اقليمها الجغرافي دون قبول مسبق منهم.والناس ينضمون الى المجتمع المدني لغاية هي تحقيق مصالحهم والدفاع عنها سواء أكانت المصلحة مادية ام معنوية.

٢. التنظيم الجماعي: قلنا ان المجتمع المدني يضم تنظيمات ونوادٍ واحزاب، وان كل تنظيم منها يضم مجموعة من الأفراد اختاروا عضويته بمحض ارادتهم الحرة،ولكن ذلك يجب ان يتم وفق شروط على رأسها التراضي بشأنها او قبولها ممن يؤسسون التنظيم او ينضمون اليه فيما بعد.

ان المجتمع المدني اذاً هو الأجزاء المنظمة من المجتمع العام. والمجتمع المدني هومجتمع ((عضويات)) فبقدر ما يحمل اي مواطن من بطاقات عضوية بقدر ما يكون عنصراً ناشطاً في مجتمعه المدني. ومن لايحمل بطاقة عضوية في تنظيمات المجتمع المدي يُعد مهمشاً. او من المستضعفين في اي مجتمع معاصر.

٣. الركن الأخلاقي السلوكي وينطوي على قبول الأختلاف والتنوع بين الذات والآخرين، وعلى حق الآخرين في ان يؤسسوا منظمات مجتمع مدني تحقق وتحمي وتدافع عن مصالحهم المادية والمعنوية) [1] .

وقد انتشر الخلاف بين رواد الحركة الاصلاحية في تحديد هوية المجتمع المدني ، واعتبره البعض مفهوما مشوشا ، فمنهم من عرفه على نحو اجرائي وانه جملة من المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعمل في ميادينها المختلفة في استقلال عن سلطة الدولة لتحقيق اغراض متعددة منها، اغراض سياسية كالمشاركة في صنع القرار على المستوى الوطني، ومثل ذلك الاحزاب ، ومنهم من قال بان التطور التقني والتكنولوجي هو تقدم وتمدن المجتمع المدني ، واخرين

---

[1] عن المجتمع المدني وآفاق المستقبل/أ. د طالب مهدي الخفاجي/مقال صادر عن مؤسسة مدارك لدراسة اليات الرقي الفكري ..

قاسوه بالثورات الصناعية ، ومنهم من عرفه على اساس اغراض نقابية كالدفاع عن المصالح الاقتصادية لاعضاء النقابة للارتفاع بمستوى المهنة والدفاع عن مصالح اعضائها ، ومنهم من جعله على اسس ثقافية وان المجتمع المدني هو الذي تزدهر فيه حركة الادب والثقافة كما في اتحادات الكتاب والمثقفين والجمعيات الثقافية التي تهدف الى نشر الوعي الثقافي وفقاً لاتجاهات اعضاء كل جمعية ، واما الجعل الاسلامي لبناء المجتمع الحديث والمتمدن سوف نناقشه في الفصل القادم ان شاء الله..

المبحث الثاني

المسلك الحداثوي

في قراءة النص القرآني

التواصل الحضاري والمفهوم الحداثوي الاسلامي

جاء الاسلام بكتابه السماوي الخالد محاكيا للعقل وبداية للرشد والنضوج، فكان فتحا جديدا في تاريخ الفكر الانساني، وثورة على التقليد الجامد الذي لا يقوم على علم ولا يستند على دليل، محررا العقل بعد ان كانت البشرية أسيرة الجهل والخرافات والأساطير والألغاز..

وقد جاء القرآن الكريم بحركة اصلاحية حداثوية واضعا الاطار العام في كيفية التعامل مع التحضر والتمدن وضرورة التواصل بين الحضارات كما قال تعالى (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) واضعا أمامنا أسسا ثابتة للتعامل مع التطورات في إطار متغيرات العصر والتاريخ وهو يتوجه إلى عالمية وحداثة جديدة لكل البشر مستوعباً لمقوماتها في تكوين انسان العالم

الجديد ومستوعباً حداثته ، فالمفهوم القرآني قائم على ضرورة التفاعل مع متغيرات كل عصر، واضعا النزعة السلفية التقليدية في كل الاتجاهات والمدارس الاسلامية خارج سياق مضامينه ومفاهيمه، واذا كانت الحداثة تلغي الخصوصيات الثقافية فالقرآن لا يلغيها بل يؤكدها فالاختلاف والمغايرة هو الأصل في يقظة الوعي وتجدد الفكر وتطور الحياة وهو ما تنطق به الآية المباركة: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) وغيرها من الآيات التي تتحدث عن اختلاف الشعوب والقبائل واختلاف الذكر والأنثى ، يقول علي حرب: (ان الاختلاف يولد المعنى ويخلق الدلالة) واذا لم تتميز الأشياء بعضها عن بعض لما كان ثمة تجدد وتطور، والحداثة في المنظور الاسلامي تعني كل ما هو متفتح ومتطور، والحرية التي تعتبر مبدأ مهماً في الحداثة ، هي في القرآن أمر أساسي ، وهي تقوم على التوازن بين الحقوق والواجبات والايمان والعقل ..

فالعقل الذي يفكر ويعمل بصورة حرة يشهد للحقيقة ، والبعدان، التفكير والايمان ليسا متعارضين ولكنهما متكاملان كما يوضح ذلك ابن رشد بقوله: (ان الحقيقة لا يمكن ان تكون مخالفة بل نتفق معها ونشهد لصالحها)، فيوجد لدى الانسان حالة تفتح عقلي قابل للتطور بحرية وباستمرار، ليتحمل مسؤوليته الذاتية، وهذه هي الميزة الأساسية للحداثة الأصيلة التي يطمح اليها الانسان وقد اسسها القران الكريم واطرتها السنة النبوية وروايات اهل البيت عليهم السلام..

ومن سمات الحداثة في القرآن، انه كتاب موجه للناس جميعا، من دون تفرقة عرقية او ثقافية او طبقية او جغرافية، فالاسلام دين عالمي لكونه يلخص ويجدد المعطيات المهمة في تاريخ الأديان السماوية..

فالقرآن الكريم وضع اول حداثة حقيقية في تاريخ البشرية، حداثة فكرية، ورسالة سماوية انسانية واقعية،

ومفاهيم عقلية منفتحة، والقرآن لا يواجه تحديات جديدة لانه يوازن بين الأصالة والحداثة المطلقة، وهذا ما يجده كل من يقرأ القرآن قراءة واعية متأملة، وغير منحازة..

مفهوم القراءة الحداثية للنص القرآني

لقد مر الفكر الحداثي في العالم العربي بالعديد من التحولات والمراجعات من قبل معتنقيه ومقرريه ، الا ان رموزه مازالت تعتقد الى اللحظة بان السبيل الى التمنية والتطور ، ومد الجسور المعرفية في التواصل مابين الحضارات لابد ان يمر بالتجربة الاوربية في بناء حداثتها وان تغير واقع المسلمين والعرب ودفعهم لعجلة التطور والتقدم لا يحصل الا عن هذا السبيل والمسلك الذي سار به الاوربيون في تحقيق نظرتهم وحضارتهم ..

لذلك فان اول خطوة لهذا الطريق تبدا من حيث بدأت هناك ، الا وهي الاصلاح الديني ، الذي يمثل المنفذ لبقية الاصلاحات السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية وغيرها ، فهو الذي يخلق المشروعية ويحقق تلك

الاصلاحات ، وكان الدستور الاول للمسلمين هو القران الكريم ، فبدأ الحداثيون بتطبيق تلك التجربة ومحاولة تنظير الفكر الحداثي الديني ليكون اسا لقراءة جديدة للنصوص القرانية ، حيث تبنى اصحابها فلسفات ومذاهب غربية حديثة حاولوا تطبيقها في تفسير القرآن الكريم، متجاوزين الأدوات العلمية التفسيرية المسطرة عند أهل الاختصاص في هذا العلم، ومن أبرز أسماء هذا الاتجاه الذين تعاملوا مباشرة مع الآيات القرآنية: محمد أركون، ومحمد شحرور، ونصر حامد وغيرهم...

وقد يعبر عن القراءة الحداثية للآيات القرآنية "بالقراءة الحديثة" [١] أو "القراءة المعاصرة"[٢] أو"القراءة

---

[١] سميت بالقراءة الحديثة في المؤتمر الذي نظم ببيروت من طرف: المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، والملتقى الفكري للإبداع ببيروت، بتاريخ: ١٢-١٣محرم١٤٢٧هـ/١١-١٢فبراير٢٠٠٦م تحت شعار: "التطورات الحديثة في دراسة القرآن".

[٢] "القراءة المعاصرة مجرد تنجيم"/ لسليم الجابي، و"القراءة المعاصرة تحت المجهر" لنفس الكاتب .

الجديدة"[١] لكن الأقرب إلى مفهوم هذه القراءة بالنظر إلى مضامينها هو نسبتها إلى فلسفة الحداثة [٢]، لأن عبارة: القراءة الحديثة أو المعاصرة أو الجديدة تفيد التحديد الزمني دون الإشارة إلى أية مرجعيات فلسفية، مع العلم أنه لا ينبغي إدانة كل تعامل مع القرآن في العصر الحديث أو المعاصر لمجرد أنه حديث أو معاصر، وإلا وقعنا من حيث لا نشعر في "الحداثة المعكوسة" أو "القدامة" بحيث يكون الزمن هو معيار القيمة، ويكون الفرق الوحيد بين فلسفتنا وفلسفة الحداثة هو أن هذه الأخيرة تقدس الزمن الآني بينما نقدس الزمن الماضي، والحقيقة أن قيمة الأفكار ومعيار التفضيل بينها لا يعود إلى الزمن لا ماضيا ولا آنيا، وإنما يعود إلى مدى التزامها

---

[١] " القراءة الجديدة للقرآن الكريم/ الدكتور عبد الرزاق هرماس

[٢] " من نسبها إلى الحداثة الفيلسوف طه عبد الرحمن في محاضرة علمية بعنوان: "الآيات القرآنية و القراءات الحداثية"، ألقاها في إطار: "المنتدى الجامعي للدراسات والأبحاث القرآنية"، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- المحمدية- يوم الثلاثاء ٢٧ محرم ١٤٢٦هـ/ ٨ مارس ٢٠٠٥

بالمنهج العلمي الموضوعي المجمع عليه في حقل معرفي معين..

فليس المقصود إذن هو رفض كل الاجتهادات الحديثة أو المعاصرة أو الجديدة في التعامل مع القرآن الكريم وتفسيره، وليس مبعث الحذر من هذه القراءات هو كونها جديدة غير معهودة، لأنه ليس كل جديد مردود متوجس منه، وإنما المقصود تلك القراءات المرتبطة بفلسفة الحداثة التي تقوم على الآنية الزمنية، وعلى إسقاط الفلسفات الغربية على النص القرآني مهما اختلفت طبيعتها عن طبيعته، يعني أنه من الممكن منهجيا وجود اجتهادات تفسيرية حديثة أو معاصرة تتجاوز الاجتهادات القديمة، مع التزامها بالمنهج العلمي التفسيري كأسباب النزول والمكي والمدني والناسخ والمنسوخ ، وكل ما يتعلق بالاتجاه الأثري واللغوي في

التفسير، بحيث يكون القرب من زمن الرسالة قيمة مضافة..

وتعتمد القراءة الحداثية أساسا على العقل في التعامل مع الآيات القرآنية، بل والرأي المجرد عن الدليل حتى فيما يتعلق بالحقائق الغيبية والقضايا التي وردت فيها أحاديث صحيحة وقطعية الدلالة، وهو الشيء الذي لا يتوافق مع أصول وقواعد تفسير القرآن، ولهذا فهم يستبعدون السنة تماما في العملية التفسيرية، ولا يلتفتون مطلقا إلى الآثار الواردة في التفسير ، وإذا تأملنا القراءة الحداثية للآيات القرآنية نجد أن بها جل هذه الخصائص؛ لأن الحداثيين يتعرضون للقرآن من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير، بل إن جلهم غير متخصص في العلوم الشرعية والقرآنية بالخصوص..

اذن فالقراءة الحداثية للآيات القرآنية لا تفترض منهجا علميا محددا في التعامل مع النص القرآني، بل

تتبنى عدة مناهج مختلفة أو حتى متناقضة في الآن نفسه، فتجد الواحد منهم مثلا يتبنى الماركسية والبنيوية وغير ذلك في الوقت نفسه رغم أن بعضها قام على أنقاض بعض، مما يجعل هذا الخطاب بعيدا مطلقا عن الانسجام الفكري أو متسما باللامنهج، وهي مزية للبحث العلمي كما يراها محمد اركون في ابحاثه ، ويسميه بالمنهج متعدد الاختصاصات [1] وقال في كتابه: "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني": "إن وجهة النظر هذه تتخذ أهمية حاسمة...لأنها هي وحدها التي تجبرنا على الربط بين مختلف أنواع المنهجيات التحليلية"[2]..

فهو من خلال المزج بين العديد من المناهج، ينتظر ولادة فكر تأويلي جديد للظاهرة الدينية، ويغطي على

---

[1] الفكر الإسلامي قراءة علمية / محمد اركون / ص١٢٥
[2] المصدر نفسه / ص٧٠

ذلك بما يسميه بـ"الإسلاميات التطبيقية" التي يدعي أنها تحتاج إلى مناهج متعددة في نفس الآن ...

والحقيقة أن هذا اللامنهج الذي سلكه إنما رمى بفكره في باحة الوهم ، وقد سبقه إلى ذلك الفيلسوف "فيراباند بول"؛ وهو من فلاسفة ما بعد الحداثة الذين دعوا إلى نظرية الفوضى؛ ألف كتابا بعنوان: "ضد المنهج"، ودعا إلى إعادة الاعتبار إلى التنجيم والكهانة والأساطير، بعد أزمة العقل الغربي الذي كانت الحداثة قد رفعته إلى مستوى التقديس، وألف كذلك كتاب: "وداعا للعقل" حارب فيه العقل والموضوعية، وادعى بأن العلم ليس أدق ولا أنفذ من الأسطورة..

ولهذا نجد اهتماما بالغا من محمد أركون بالأسطورة والفكر الخرافي، قال: "ينبغي القيام بتحليل بنيوي لتبيين كيف أن القرآن ينجز أو يبلور (بنفس طريقة الفكر الأسطوري الذي يشتغل على أساطير قديمة

متبعثرة) شكلا ومعنى جديدا ، لأنه من المهم أن نعرف مدى تشظي الأساطير المعاد استخدامها إذا ما أردنا أن نطلق حكما دقيقا على الروابط بين الأسطورة والتاريخ وبين الوقائع الحقيقية وذلك فيما يخص القرآن"[1]..

إن غاية مسعى الحداثيين اليوم هو إعادة قراءة القرآن، ومحاولة الشرعنة لذلك من خلال القرآن الكريم نفسه، على اساس مايسمى بالحداثة الجديدة التي تحاول ابرازه من خلال القطيعة مع التراث الاسلامي ومراجعة النصوص نقدا وتفسيرا لا يستند الى المناهج والادوات المعرفية في عملية التحليل ، كان من ابرزها قراءات اركون في اطار مقالاته المندرجة تحت عنوان (نقد العقل الاسلامي) وكتابات محمد عابد الجابري في دراسته (للنص التاسيسي) وغيرهم مما ذكرنا اعلاه ، وقد كتبت

---

[1] المصدر نفسه / ص٢٠٣

البحوث النقدية والتحليلية والدراسات العديدة في هذا المجال [1] ...

وهنا يبدأ التساؤل عن مصير القراءة الأولى ، التي تقوم على اساس المنهج العام ، وهل تصطف مع المعارضين للحداثة ، ام انها اشتملت عليها في تقريراتها التي تنبع من القرآن نفسه (طبعا مع التسليم بوجود انحرافات فكرية في ممارسة تحليل النص من بعض تلك المدارس الاسلامية المنحرفة ، لكنها لا يمكن ان تكون منهجا قويما) ، إلا أن الطابع العام لهذا المنهج هو الانطلاق من داخل النص، لكن القراءة الحداثية المقلدة لا تجد أي غضاضة في استنساخ وإسقاط فلسفات غربية متنوعة على النص القرآني، والشرعنة لنفسها من فلسفات الحداثة وما بعدها..

[1] منهج محمد اركون في نقد الدين والتراث الاسلامي/دراسة نقدية/اطروحة ماجستير /عبد الله بن محمد المالكي

سمات القراءة الحداثية للنص القرآني

كانت الانطلاقة العامة لبناء المرتكزات الحداثية في قراءتها للنصوص القرانية ، قد اعتمدت على سيادة العقل في تأسيس العملية التأويلية ، اوكما يطلق عليها خطة التعقيل[1] ، ومنها اقامت الستراتيجيات النقدية في عرضها المنهجي وفق النظريات الحديثة بجعلها الاصل ، ومحاكمة النصوص القرانية طبقا لتلك المعايير (التي لا تلبث ان تزول قبل اقرارها كنظرية) [2] مستهدفين رفع عائق الوحي والتعامل مع النص القراني كأي خطاب بشري صادر من نفس المستوى ، وبالتالي فانه خطاب تاريخي موروث ، اعتمد على تصورات مرتبطة بدرجة الوعي لاؤلئك الذين توجه الخطاب اليهم في تلك

---

[1] روح الحداثة/ د.طه عبد الرحمن/الدار البيضاء المغرب/ص١٨١

[2] سياتي في نقد سمات الحداثة

المرحلة ، ولما كانت مرتبة وعيهم دون مرتبة الوعي النقدي درجات ، لزم ان تكون بعض هذه التصورات على الاقل ذات صبغة اسطورية[1] ..

اذن تلك الثوابت كانت محور الخطاب الحداثوي في مشروعه التحليلي ، وسوف نستعرض اهم الخصائص المنبثقة من تلك الاركان ، والتي وقفوا عليها في قراءاتهم النقدية للنصوص القرانية (بشكل مقتضب) وقد خلت من الروح الاعتقادية التي يبني عليها المنهج اساسه ، وكانت ابرز تلك المحاولات واكثرها انتشارا في الاوساط الثقافية قراءة محمد اركون ، ونصر حامد ابي زيد ، وطيب تزيني ، وحسن حنفي وغيرهم ، وقد اتخذت ابعادا متعددة في تحقيق اهدافها الا انها متناسقة في ستراتيجيتها ...

---

[1] النص والسلطة والحقيقة/نصر ابو زيد/ص١٣٥

ومن هذه السمات :

- رفع عائق القدسية للنصوص القرانية ، بعد محاولتهم تقديم قراءة جديدة تمثلت في تنزيل الخطاب الالهي كاي نص بشري من خلال المماثلة بينهما ، بحيث يمكن للفرد اعادة انتاج النصوص[1] ويتم ذلك من خلال مجموعة من العمليات كان من اهمها :

ا- دعوة المسلك الحداثوي الى حذف عبارات التعظيم لكتاب الله عز وجل ، مثل (القران الكريم) و(القران العزيز) و (القران الحكيم) و (الاية الكريمة) و(قال الله تعالى) و (صدق الله العظيم)[2]

ب- العمل على تسوية الخطاب الالهي بالخطاب البشري من خلال الاستشهاد بالاقوال الصادرة من

---

[1] في قراءة النص الديني/عبد المجيد الشرفي/ص٩٥

[2] المصدر نفسه / ص٢٠٣

بعض الباحثين حتى غيرالمسلمين في مرحلة نقييم الايات القرانية[1]

ج- تحديث بعض المصطلحات التي يرى فيها النكهة التاريخية ، باخرى تعتمد على مفاهيم معاصرة ، كأن يُستعمل مصطلح (المدونة الكبرى) بدلا من (القران الكريم) ويستعمل مصطلح (العبارة) بدلا من مصطلح (الاية) ومصطلح (الخطاب النبوي) بدلا من (الخطاب الالهي) وغير ذلك كثير مما تسالم عليه الحداثيون في قراءتهم للنصوص ، حيث يقول اركون : وكنت قد بينت في عدد من الدراسات السابقة ان مفهوم (الخطاب النبوي) يطلق على النصوص المجموعة في كتب العهد القديم والاناجيل والقران كمفهوم يشير الى البنية اللغوية

---

[1] القران من التفسير الموروث الى تحليل الخطاب الديني/محمد اركون/ص١١ ، ص١٤٥

والسيمائية للنصوص ، لا الى تعريفات وتاويلات لاهوتية عقائدية[١].

د- القدرة الكاملة للعقل البشري على استيعاب وتحليل وتقويم النصوص القرانية ، وليس كما يدعيه اصحاب المدرسة التفسيرية الكلاسيكية في تعدد الاوجه الخطابية للنص وصعوبة فهمها بكلمة (والله اعلم) ، حيث يقول ابو زيد : ان القول بالهية النصوص والاصرار على طبيعتها الالهية تلك يستلزم ان البشر عاجزون بمناهجهم عن فهمها مالم تتدخل العناية الالهية بوهب البشر طاقات خاصة تمكنهم من الفهم[٢].

هـ- نفي الطبيعة الالهية للقران من خلال المقارنة بينه وبين النبي عيسى عليه السلام ، فاذا كان المسلمون ينفون الطبيعة الالهية لعيسى وهو كلمة الله ، ويثبتون له

---

[١] من التفسير الموروث الى تحليل الخطاب الديني/محمد اركون/ص١٥

[٢] نقد الخطاب الديني/نصر حامد ابو زيد/ص ٢٠٦

الطبيعة الانسانية ، وجب عليهم كذلك في القران ،وهو كلام الله (عز وجل) بان يثبتوا له ايضا الطبيعة الانسانية ويقول نصر حامد ابو زيد : والمقارنة بين السيد المسيح من حيث طبيعة (نزول) الاول وطبيعة (ميلاد) الثاني تكشف عن وجوه التشابه بين البنية الدينية لكل منهما داخل البناء العقائدي للاسلام نفسه ، ولعلنا لا نكون مغالين ، اذا قلنا انهما ليستا بنيتين ، بل بنية واحدة رغم اختلاف العناصر المكونة لكل منهما ، فالقران كلام الله (عز وجل) وكذلك عيسى عليه السلام رسول الله وكلمته [(١)].

كل تلك المحاولات جاءت لخلخلة النص القراني بعد محاولة رفع لقدسيته وفصله عن مصدره السماوي ، من اجل توثيقه باغلال تعدد الثقافات البشرية،كما يعتقد ابو زيد (ان النصوص الدينية ليست في التحليل الاخير

---

[١] نقد الخطاب الديني/نصر حامد ابو زيد/ص٢٠٥

سوى نصوص لغوية ، بمعنى انها تنتمي الى بنية ثقافية محددة يتم انتاجها طبقا لقوانين تلك الثقافة التي تعد اللغة نظامها الدلالي المركزي) [1] ، ليكون مجرد نص خطابي يتم انتاجه وفقا لمقتضيات وعناصر تسخدمه لتقوية مصالحها ، فيصير متعدد الدلالات ، منفتح الاحتمالات ، طبقا للخلفية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وبالتالي فان كل مايستطيع الانسان اقتناصه من النص القراني يكون حصيلة الاستنطاق الذي يمارس عليه من خلال مرجعيته الثقافية ، وخلفيته المعرفية ، ووضعيته الاجتماعية والسياسية ، فيصبح مسخرا لمقتضيات المصلحة البشرية ، ولا يكون الا حصيلة ابداع لمضامين انسانية ، ويؤكد احدهم هذا المعنى بقوله : ان الوضعيات الاجتماعية المشخصة في المجتمع العربي ، بما انطوت عليه من سمات ومطالب

---

[1] المصدر نفسه / ص٢٠٣

اجتماعية اقتصادية وسياسية وثقافية الخ هي التي تدخلت في عملية خلخلة النص القراني وتشظيه وتوزعه بنيويا ووظيفيا في اتجاهات طبقية وفئوية واقوامية متعددة وقد اتى ذلك على نحو ظهر فيه هذا النص معادا بناؤه وفق قراءات متعددة محتملة تعدد تلك الاتجاهات وحواملها المجسدة بالوضعيات المذكورة اياها[1]

- الغاء فكرة الوحي من المنظومة المعرفية الاسلامية واطلاق حاكمية العقل في قراءة النصوص القرانية ، وقد اكد هذا المعنى محمد اركون في كتاباته فيقول بهذا الصدد : لكننا نعتقد ان اي نقد حقيقي للعقل الديني ينبغي ان يتمثل في استخدام كل مصادر المعقولية والتفكير التي تقدمها لنا علوم الانسان والمجتمع من اجل زحزحة اشكالية الوحي من النظام الفكري والموقع الابستمولوجي الخاص بالروح الدوغماتية الى فضاءات

---

[1] النص القراني امام اشكالية البنية والقراءة/طيب تيزيني/٢٥٦-٢٥٧

التحليل والتاويل التي يفتتحها الان العقل الاستطلاعي الجديد المنبثق حديثا[1] ويتوسم الحداثي بثلاث اليات لتحقيق مدعاه كان منها:

أ- تبديل مفهوم الوحي عن المتصور في الادبيات الاسلامية الموروثة ، والقائمة على اساس التصور الديني باخر يحاكي العقل ويصرف عنه النظرة الاسطورية والقصصية ،فيقول اركون :(نحن نهدف من خلال هذه الدراسة الى زحزحة مفهوم الوحي وتجاوزه ، اقصد زحزحة وتجاوز التصور الساذج الذي قدمته الانظمة اللاهوتية عنه) [2]، فيُقترح بديلا ناشئا من نفس العقل الخارق ، او مايسمى (بالموهبة التي تختص بها بعض العقول الانسانية) نبيا كان او عبقريا ، وعلى معنى

---

[1] من التفسير الموروث الى تحليل الخطاب الديني/محمد اركون/ص٥٨

[2] المصدر السابق/ص٧٦

(الوظيفة المقررة للكائن الحي) حيوان كان او جماد[١] ، وتقتنين تلك الوظيفة في الجانب الاخلاقي.

ب- محاكمة النص القراني وفق الادبيات النقدية المستحدثة بانزال كافة مناهج العلوم الانسانية على الخطاب الالهي ، معتبرها ضرورة اقتضاها البحث العلمي ، كعلوم اللسانيات ، وعلوم السيميائيات ، وعلوم التاريخ ، وعلوم الاجتماع، والنفس وغير ذلك .

ج- محاولة هدم العلوم القرانية التي وضعها علماء المسلمين واعتبارها وسائط معرفية متحجرة تصرفنا عن الرجوع الى النص القراني ، وتحول دون قراءة النص قراءة عقلية مجردة ، فلم يلبثوا الا ان يصدروا حكمهم بضرورة تجاهلها[٢].

---

[١] مستندين الى بعض الايات القرانية التي خاطبت النحل ، منها قوله تعالى (واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا) سورة النحل – الاية ٦٨.

[٢] مفهوم النص/دراسة في علوم القران/نصر حامد ابو زيد

فيتضح لنا تلك الدعوة التي تحاول نفي الوحي وتنكر اصل وجوده وما النص الا ابداعات عقلية وموهبة فكرية انجبت لنا تلك الخطابات التي تتسم بالقداسة ، فما القران بافضل من التوراة والانجيل ، فما ثبت من الاحكام والحقائق لهما يثبت للقران (ماثبت للشئ يثبت لمثله) وعليه فلا سبيل لادعاء الافضلية للنص القراني على هذين الكتابين ، حتى فيما يتعلق بالحفظ والتبديل ، يقول نصر حامد ابو زيد مؤكدا ذلك: ان كل الخطابات تتساوى من حيث هي خطابات ، وليس من حق واحد منها ان يزعم امتلاكه للحقيقة ، لانه حين يفعل ذلك يحكم على نفسه على انه خطاب زائف [1] اما اركون فيقرر مبناه بالسياق التالي : يتعين ان نستبدل بمفهوم (اهل الكتاب) الذي يخرج اهل القران من مسماه مفهوما جديدا يدخلهم فيه وهو مفهوم (مجتمع الكتاب)

---

[1] النص والسلطة والحقيقة/نصر حامد ابو زيد/ص١٨

تاكيدا لتساوي هذه الاديان الثلاثة ، نشأة وتأثيرا ومصيرا..

والباحث المحقق يستعمل ادواته المعرفية البديهية فقط ليعرف هشاشة هذه الدعاوى ، واشتمال تلك الكتب على الاساطير والسرد القصصي بعدما انفك عنها سلطة الوحي...

ثم يأتي العقل البشري مقاضيا النص القراني بعدما جردوه من مفهوم القداسة اولا ثم اشكالية الوحي ثانيا ، جاعلين تلك القداسة والعقل (الوحي) المبدع ، للذهن البشري الذي مالبث بتاسيس نظرية الا على انقاض اخرى ، وافول بعضها بعد بزوغ بعد ، والتاريخ شاهد..

ثم يرى اركون ان الاستعارة قد غلبت على النص القراني في استدلالاته وبراهينه ، ويستنتج من ذلك ان العلوم القرانية المستفادة في العملية التأويلية ، قد بنيت

على اساس اسطوري وقصصي فهي اقرب منه للاستدلال المنطقي [1] في حين ان اغلب كتابات اركون بل جلها ، لم تكن باللغة العربية ، ليستطيع التمييز والتحقيق في الاسلوب البياني والبلاغي.

تعميم الجانب التاريخي، وسلب مفهوم المعاصرة من النص القراني بعد وقفية الاحكام والتشريعات على الظروف والبيئة الملائمة التي وردت فيها ، يقول نصر ابو زيد : نكتفي هنا بالتوقف عند مستويات السياق المشتركة والعامة جدا مثل السياق الثقافي والاجتماعي والسياق الخارجي (سياق التخاطب) والسياق الداخلي (علاقات الاجزاء) والسياق اللغوي (تركيب الجملة والعلاقات بين الجمل) واخيرا سياق التأويل [2]..

[1] نقد الخطاب الديني/محمد اركون/ص٢٣٨

[2] النص والسلطة والحقيقة/نصر حامد ابو زيد/ص٩٦

واستخدم الحداثيون اساليب مختلفة لتلوين هذا الادعاء واضفاء الصبغة التاريخية الملائمة للخطاب الالهي ومنها :

أ- ممارسة علماء التأويل للدور الريادي في ايضاح المطالب المشروعة للنص اعتمادا على الوقائع التأريخية التي اشتغل بها قدماء المفسرين ، كاشف عن الاتصال الوثيق بالتأريخ ، كمسالة اسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، والمكي والمدني ، فكانت ضالتهم في تقرير البنية الجدلية ، وممارسة النقد التاريخي خصوصا بعد الكشف عن التناقضات في تلك المباني ..

ب- ملائمة الاحكام القانونية لروح العصر وفق متطلبات الظروف المتغيرة ، في حين ان التشريع للاحكام الاسلامية عرضة للتغير ، فيبرز الفرق بين (القاعدة القانونية) التي هي عبارة عن امر صريح باتباع سلوك معين في ظروف معينة ، تؤدي مخالفته الى انزال عقاب مخصوص ، في حين ان (اية الحكم) تارة تاتي بنحو الامر

واخرى بنحو الخبر ، فيكون اما قرارا عاما او قرارا خاصا مع امكانية النسخ والتبديل ، وهذا مايفقد قيمته التشريعية وصفتها الالزامية [١].

ج- المماثلة التاريخية في النصوص القرانية المتعلقة بايات الاحكام والتشريعات بل وحتى على مستوى العبادات ، فكان دور العلماء في تحديد الاحكام الشرعية من النصوص المتشابه ، يعتمد على الظروف البيئية المحيطة الاجتماعية منها والسياسية والاقتصادية ، فلا يمكن ان تحمل هذه الايات معاني مستقلة ، وكذا الحال في الايات العقدية التي نزلت في ذلك العصر لتحاكي المستوى المعرفي الاني ، فكانت خطابات مرتبطة بدرجة الوعي لاولئك الذين توجه اليهم الخطاب ، فلزم ان تكون بعض هذه التصورات ذات صبغة اسطورية[٢] ..

---

[١] القران والتشريع/صادق بلعيد/ص٥٠ – ٦٢.

[٢] النص والسلطة والحقيقة/نصر حامد ابو زيد/ص١٣٤ – ١٣٥.

فكانت وسائل لو جمع منطوقها نخرج بمفهومات تشير الى ثلاثة اهداف ، كان الاول منها يصدح بضرورة اسقاط العمل ببعض النصوص القرانية ولا حاجة للمارسة العلمية لمعرفة المحكم منها والمنسوخ ، حيث انها ارتبطت باحوال وظروف معينة سجلتها وقائع تاريخية كانت تصب في رحاها ، وبزوال حالها انتفت الحاجة لتلك الايات واصبحت من الماضي[1] ، اما الثاني ، فحصر الاحكام ومقارنتها بالقوانين الوضعية ، كاد امرا لا يصح مقارنته فاصبحت مسلماتهم تقتضي بان نصوص الاحكام لم تغدو الا توصيات وعظية ، لا قوانين وضعية تلائم احتياجات المجتمع وتدير شؤنه التنظيمية والاسرية ، ومعاملاته الاقتصادية [2] وفي ايدينا القوانين التشريعية التي تعرض عليها التعديلات بين الايام والليالي طبقا للمصالح الانتفاعية ، لتخلخل

[1] القران والتشريع/صادق بلعيد/ص ٢٩٧

[2] الاسلام والحداثة/عبد المجيد الشرفي/ص١٤

مدلولاتها وضعف تصديها لملائمة الغاية التشريعية التي تعمل على بناء انسانية الانسان ، اما الثالث فكان يرمي الى تجميد النص القراني على الجانب المعنوي والاخلاقي وهو كتاب توجيه وهداية ، وكان دليليهم ، ان معظم الايات التي افتتح القران بها سوره كانت (ياايها الذين امنوا) وختامها باية (ان كنتم مؤمنين) او (ان كنتم صادقين) والتاكيد على الجزاء الاخروث والثواب العظيم جراء بعض الافعال والسلوكيات ، حيث يقول تزيني : فالصبغة الاجمالية الكلية التي فيها يظهر النص القراني في صوغ مبادئه ومعظم احكامه وكذلك في نمط خطابه جعلته يبدو بمنزلة كتاب هداية وكتاب بشرى ، وليس من حيث هو كتاب قانوني تعليمي يحتوي على كل صغيرة وكبيرة وحتى في حينه[1]، تلك هي ابرز سمات القراءة الحدثية للنص ..

---

[1] النص القراني امام اشكالية البنية والقراءة/طيب تيزيني/١٨٤

أزمة قراءة النص

لأجل تحقيق الموائمة في اسقاط اي وسيلة على اي موضوع ، لابد من وجود مناسبة بينهما لأجل ان تحافظ تلك الوسيلة على مشروعيتها في تحقق الهدف المنشود من ممارسة عملية النقد المنهجي ، فكان الاجدر بالحداثيين ان يعملوا على تحصيل تلك المناسبات لتكون عملية التحليل بناءة ومثمرة ، الا ان الضعف في استعمال الاليات المنقولة ، وعدم الاحاطة بالظروف والاسباب ادى الى ذلك التخلخل المنهجي ، فقد وردت اليهم نتيجة لممارسات تأريخية عاشها العقل الغربي ، وراحوا يسقطون على النص القراني كل ماظفروا به من نتاج الاخرين ، غير معتبرين تأريخية هذه الادوات ومدى صلاحيتها ، كما عاشها العقل الغربي في صراعه مع الكنيسة الذي دام عقودا من الزمن ، فكان مقتضاها ،

العمل على رفع قدسية الكنيسة ووصايتها الروحية ، ومساواتها بالانسان ، وليس من حق رجالاتها تقرير مصير الامة بموجب الهالة التي يتغنون بها ويحكمون السيطرة على واقع الحياة بتفاصيلها ، والامر الاخر الذي به تصنع رجالاتها ممارسين دور اوصياء الوحي في تحقيق تلك الهيمنة ، فجاء التوسل بالعقل كبديل لمفهوم الوحي فظهرت المدارس التي لعب العقل محورا لوجودها كالشكاكية والعقلانية والتجريبية وغير ذلك ، وقد استمرت تلك الهمينة في العصور الوسطى حيث سمي بعصر اباء الكنيسة ، وهو مااستفاد منه الحداثويين في خطتهم الاخيرة التي جاءت لهدم تاريخية ذلك الفكر ووسمته بالتقليدية والتراثية وعدم قدرته على مجاراة التطور الصناعي الذي انبثق مع تخلخل هيمنة الكنيسة ، وظهور عصر جديد ملئ بالمبادئ الانوارية والمناهج المعرفية..

ولا عجب ان يتهافت هولاء ممن تاثر بالعقل الغربي محاولا انتاج نفس النتائج التي توصل اليها علماء الغرب بصدد التوراة والاناجيل [1].

لذلك في لانجد في قراءات المسلك الحداثوي منهجا علميا واضحا وصريحا مستندا الى اسس وقواعد ، بل حاول البعض منهم التسلق على جدار الفكر بتبنه العديد من المناهج المتلونة ، بل والمتناقضة في الحين الاخر ، مما يجعل ذلك الخطاب مشوشا ومتسما باللامنهج ، وهي ميزة للبعض منهم كمحمد اركون ، الذي قام باعادة تسميته بالمنهج متعدد الاختصاصات [2] ، حيث يقوم هناك بتحليل الخطاب الديني على اساس رابطي بين مناهج عدة تتخذ طرق مختلفة في عملية النقد والتقويم

---

[1] يقول صالح هاشم في مقدمته للترجمة التي وضعها لكتاب اركون : قضايا في نقد العقل الديني مايلي : (ان مايفعله اركون بالنسبة للتراث الاسلامي يشبه الى حد بعيد مافعله علماء اوربا ومفكروها بالنسبة للمسيحية) ص١٥..

[2] الفكر الاسلامي قراءة علمية/محمد اركون/ ص١٢٥

بل وفي ذاتها تحتاج الى عملية تنقية لجعلها الالات للترشيح [1]، والمشكلة الاخرى تبرز في اصرارهم على العمل بتلك الاليات التي جعلوها احكاما ناجزة بحق التراثية والتقليدية دون الرجوع الى قراءتها بموضوعية وانصاف..

وعندما نقف على تلك القراءات المنقولة للنص القراني ، لانجد من روحها الا ترديد لما توصل اليه علماء الغرب من تحليلات وكما اسلفنا نتيجة للحكم التعسفي الذي تعرض له الفكر الغربي على مدار الحقب الزمانية ، واما هي ترديد لبعض ماتوصل اليه المفسرين من الارآء والاقوال الشاذة ، فارادوا الميل عن الحق باتباعها ، او تلاقح بين هذا وذاك ، وقد اتسمت بالركة في العبارة وغموض الفكرة وضبابية الهدف..

---

[1] المصدر السابق/ ص٧٠

فكانت تلك القراءة عبارة عن اسقاطات الية، واقعة تحت الوصايا الثقافية للعقل الغربي ولم تأت بابداعات ، بل قراءات للقاصرين دون الراشدين..

فالحاصل أن القراءة الحداثية للآيات القرآنية ليست منهجا علميا للتعامل مع الآيات القرآنية، يتميز بالحياد ويستند إلى أصول وقواعد، وإنما هي خليط من الفلسفات والإيديولوجيات اتخذت كمنطلقات للتعاطي مع الآيات القرآنية، لهذا اصطبغت بمجموعة من السمات جعلتها قراءة موجهة مسطرة الأهداف مسبقا بعيدة عن الموضوعية والمنهج العلمي..

دور النص في عملية البناء والتغيير

تحاول الاتجاهات الصادرة من البيت الحداثوي فصل النص عن الابداع ، باعتبار النظرية الواقفية لتجميد النص في قالب ظروفه التاريخية التي صدرت عنه ، وبالطبع فهو لا يتلائم مع القراءة العصرية التي حاول البعض تزويجها بمفهوم الحداثة ، فالحداثة في ادبيات المناهج المعرفية تقرر ارتباطها بالتاريخ الحضاري والثقافي للمجتمع الغربي اما المعاصرة لايجب فيها مثل هذا الارتباط ، بل ان القارئ العصري يأخذ بمجمل منجزات عصره من غير ان يشتغل بالاسباب التاريخية.

فنحتاج الى قراءة حداثية مبدعة للنص ، من شأنها اذابة التقليد الحداثوي الغربي القائم على المماثلة اللغوية بين النص القراني والنصوص البشرية قاصدا صرف قدسية هذا النص بدعاوى لا تخضع لمنهجية علمية ..

وقد جاءت النصوص القرانية باشكال وتعابير مختلفة تهدف الى بناء الانسان ، وتقنين النظام ، باشكال وصور تعبيرية غاية في الروعة والدقة ، ولا زالت تحدث تنويرا عقليا ومنبعا جوهريا في الكثير من المجالات ، لايمكن لاي نص وخطاب ان يحدثه بالغ من بلغ..

وهناك العديد من الدراسات والبحوث انتجها يراع المفكرين في الية التعامل المنهجي مع الخطاب القراني ، فلم يكن التعامل العلمي مع الايات القرانية على طرفي نقيض ، بل المنهج القراني قائم عليه...

شمولية المفاهيم الإسلامية

جاءت الثقافية الاسلامية انطلاقا من رؤيتها الربانية لتضع مرتكزاتها ومنهجها وحركتها في الواقع ، ثقافة شمولية متكاملة ، بمعنى انها لاتنظر بعين احادية ، بل انها تنظر الى جميع جوانب الحياة ، فلا تغلب جانب على جانب اخر ، بل تعالج قضايا الروح مثلما تعالج قضايا البدن ، وكذا الحال تعالج قضايا الدنيا ولا تنسى ماوراء هذه الدنيا بكل مايقتضيه من سلوك ولباقة ..

فالتشريع الاسلامي الذي تستوحي منه الثقافة شموليتها وسعتها ، هو تشريع متطور صالح لكل زمان ومكان ، يساير حوادث الحياة ومستجداتها ، وبهذا فهي متجددة متطورة تناغم تلك المستحدثات ولا تقف عند مظهر ثابت كما ادعى نقادها بسيادة الموروث على الفكر

وانها ثقافة (ستاتيكية) جامدة على ثوابت غير متحركة ، بل تتحرك وفق مقاصد الناس ومصالحهم ..

نعم هناك ثوابت راسخة في العقيدة الاسلامية ، وخطوطا عريضة لحضارة الاسلام وثقافته فيها المصالح التي لا افساد معها ، مع ذلك توجد مساحة للتغير والتطور التي اصطلح عليها الفقهاء بمصطلح ، (منطقة الفراغ) حيث يستطيع من خلالها الفقيه او المشرع الذي استوعب مناهج الاسلام وساير ظلاله التحرك نحو مجاراة التطور في حركة الحياة وتضمن تحقيق المنافع الشاملة ...

وهذه النظرة الشمولية تفضي الى عالمية الرسالة التي اتسمت بها الثقافة الاسلامية ، حيث انها تنظر الى الناس بمقياس واحد ولا فرق بين قوم وقوم نابذة التقسيم العرقي والطبقي للمجتمع وان اساس التعامل مع الاخرين هو احترام الانسان للانسان ، وهي ثقافة يسر وسهولة تحترم قناعات الاخرين ، ولا تجبر امة

تعاملت معها على اساس التخلي عن ثوابتها الثقافية والانسانية ، بل لم تجبر اهل الاديان والمعتقدات الاخرى من ترك اديانهم بل تعايشت وتواصلت مع اهل الاديان والمعتقدات وكان في ذلك العيش الآمن للجميع ، خلافا للثقافات الاخرى التي غلبت على العالم في العصر الحديث حيث ابادت امما وشعوبا لاختلاف الرؤى وتباين المفاهيم ، بل ان الثقافة الاسلامية تنظر الى التنوع على اساس انه سنة الهية في الخلق والتفكير والاجتهاد ، وانه لايمكن للانسانية في تنوع مراحلها وبيئاتها ومصادر ثقافتها ان تفكر بطريقة واحدة في ميدان الكسب الفكري والمعرفي ..

وهذا هو واقع البشرية اديان ، ومذاهب ، وفلسفات شتى ، وهذا التنوع والتلون لا يتنافى مع روح الاسلام ، ولا يتضاد مع الوحدة فاختلاف الالوان لا يمنع من التعايش والتحاب والتعارف ، كما قال تعالى (ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم

شعوبا وقبائل لتعارفوا) (الحجرات ١٣) ، لذا فالنص القراني يؤمن للانسان العيش الامثل لان منهجه الهي رباني لا يشوبه النقائض وضعف الفكرة ، بل هي رسالة تجمع بين الدنيا والآخرة، بين الروحانية والمادية، بين المثالية والواقعية ، هي رسالة تشمل شؤون الفرد وشؤون الأسرة وشؤون المجتمع وشؤون الأمة وشؤون الدولة وشؤون العلاقات الدولية...

والدين الاسلامي منهج متكامل وشامل ينظم حياة الإنسان من أدق تفاصيلها وامتداد إلى الشأن العام وبناء الدولة وتنظيم علاقاتها الدولية ببقية دول العالم ، فيبدأ من الانسان مع نفسه في تحصيل نظافة البدن وأدب المائدة ، وكيف يأكل ويتزوج ويتعامل مع عائلته ومع الاخرين بشكل منظم ، امتدادا إلى بناء الدولة على أسس العدل والإحسان والأمانة والأخلاق والقيم والتشريعات، وتنظيم العلاقات الدولية ، يشمل كل أطوار حياة الإنسان، حيث يقرر للإنسان التشريعات

التي تحفظ له حقوقه الإنسانية ، الإسلام دين الأنبياء جميعا، كل الأنبياء كانوا مسلمين (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرَانِيّاً ولَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً) كل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون فهو شمل الزمن كله الماضي والحاضر والمستقبل ، الإسلام دين لكل الأمم لأنه رحمة الله للعالمين (ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)، (إِنْ هُوَ إلاّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ)، (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ) وليس رسالة للعرب لوحدهم أو لأهل الشرق وحدهم بل هو للعالمين كافة..

فشل مشروع الحداثة في العالم الاسلامي

لم يكن مفهوم الحداثة بكرا على الثقافات الغربية بل ولد بعد مخاض عسير في الفشل المتلاحق للمناهج والتيارات المختلفة ، بعدما كانت لكل منها رؤى خاصة في تحقيق التكامل والنمو على الصعيد الانساني ، فبعد سقوط الكنيسة من واقع الناس وقلوبهم، نشأت في الغرب مذاهب إلحادية تحاول أن تفسر الكون والإنسان والحياة تفسيرا مادياً بعيدا عن تفسير الدين وأطروحات الكنيسة، وكلما فشل مذهب انتقل الناس إلى غيره.. فمن تلك المذاهب التي ظهرت مبكرا الكلاسيكية التي ألَّهت العقل والطبيعة ، ولم يمرَّ على الكلاسيكية إلا وقت يسير حتى أدرك الناس أن العقل بمفرده عاجز عن تفسير الكون والإنسان، فجاء من يدعو إلى الاعتماد على الشعور والخيال في تفسير الحياة والإنسان، والإجابة

على الأسئلة المصيرية حولهما، وهذا المذهب يسمى الرومانسية وهو مذهب يؤلِّه (الطبيعة والشعور)، ثم انتقل الناس من الرومانسية - بعد ظهور فشلها- إلى "الواقعية" كردة فعل عكسية على المغالاة في اعتماد الشعور، ومن الواقعية انتقل الناس إلى اللامعقول وهو مذهب حوَّل الإنسان إلى حيوان لا همَّ له إلا إرواء غرائزه وشهواته، وأما الحياة في نظر أصحاب هذا المذهب فهي حقيرة تافهة لا غاية منها، وقد أسلمت تلك المذاهب والاتجاهات القياد أخيرا إلى الحداثة التي تعني الثورة على الماضي بكل ما فيه، والدعوة إلى التجديد والتغيير المستمر، وتأليه العقل، ولا حقيقة إلا ما كان منتجا عقليا، فالحداثة ليست إلا مرحلة من مراحل التفكير الغربي وليست نهايته، وهذا التحول ليس تحولا مبرمجا ومقصودا، وإنما هو دليل على مدى التخبط والحيرة التي يعيشها الغرب، فمع غياب المرجعية الدينية الحقة لا يدري هؤلاء أي المذاهب هو الحق وأيها هو

الباطل، وإذا دلّهم فكرهم على صحة مذهب ما في عصر ما، لم يلبث الزمان إلا ويكشف لهم سوءات المذهب السابق فيبطلونه وينتقلون إلى غيره وهكذا ...

اما المنهج المعرفي التي جاءت به النصوص القرانية فهو الضامن للعيش الاكمل وفق المباني التي اسس لها لتحقيق انسانية الانسان ومدينته الفاضلة كما رسمتها شريعتنا..

لذلك يمكن تحديد اهم أسباب فشل هذه التجربة فيما يلي :

- أولا / عدم القدرة على استخراج مناهج الاستدلال العقلي الموجودة في النص الديني نفسه، رغم الادعاء بضرورة العقلانية في قراءة الخطاب الديني واعادة صياغته وفق المباني الحداثوية (على الرغم من ضبابيتها) ما جعل الدعوة إلى العقلانية لا تنفذ إلى

أعماق المجتمع، بل بقي مجالها التداولي ضيقا بين مدعي الحداثة ، فضلا عن صياغتها بمفردات رائقة وأسلوب عذب لم تواكبه نهضة معرفية على الصعيد الفكري ، بل احتضنت الدعوة الى ترك الموروث بما هو زماني ، كما حصل في أوروبا، تستفز العقل الجمعي من أجل احتضانها، بل القوالب الفلسفية المادية التي صيغت في أحضانها العقلانية، كانت على العموم غريبة عن ثقافة المسلمين ..

- ثانيا / الحرب على الدين مع العجز عن نقض المرجعية الإسلامية، فقد اجتهد غلاة المشروع الحداثي الليبرالي في نقد القرآن من أجل تقويض أركان الدين باعتباره أحد المعوقات البنيوية في وجه التقدم، فتارة يتهمون القرآن بأنه نص غير كامل أو خضع للتحريف، شأنه في ذلك شأن الكتب المقدسة السابقة، وتارة يتهمونه بـ"التاريخانية" أي انه نص تاريخي كباقي

نصوص التاريخ، وتارة يربطونه بأسباب النزول لا يتجاوز معالجة قضايا الحقبة والبيئة التي نزل فيها، وتارة يطعنون في إعجازه، أما السنة فلا يعترفون بمناهج الجرح والتعديل وعلم مصطلح الحديث الذي تميّز به المسلمون ومكنهم من نخل الصحيح من الضعيف؛ ويركزون على الصراعات الدائرة داخل البيت الاسلامي ، وهذه المحاولة وجدت حاضنتها عند المستشرقين الذين كانت محاولتهم صليبية لفهم الدين وترجمته بمقتضى عدائهم للاسلام..

- ثالثا / التيار الحداثوي لم يعتمد على منهج واضح المعالم له قواعد واصول ومبتنيات يمكن الرجوع اليها ليؤسس بذلك مدرسة فكرية قائمة على مباني ومرتكزات ، بل كانت الدعوى الكبرى هو الانتفاض على غبار الموروث والدعوة الى كل ماهو حديث

وجديد، من غير تحليل جدوى تلك المورثات ومدى تاصيلها للقيم المعرفية..

- رابعا / اغلب دعاة الحداثة اتفقت كلمتهم على ان جذورها امتدت من النصوص الادبية والفنية والثورة على اللسانيات ، ثم الدعوة الى حرية الانسان وفكره ، من غير الاحتكام الى مبادئ العقلانية ، فحاول اصحاب الحداثة الشرقيين من تطبيع تلك الافكار (كما اسلفنا) على القيم والمبادئ الاسلامية لكون هو الاس في تحقيق التغيير على الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، فلم يعوا الى شمولية الاسلام ونصوصه...

- خامسا / لكي يحصل الانسان على الكمال المعرفي والتكامل الانساني يحتاج الى منهج يتوافق مع النصوص العقلية وهذا ماكفله النص القراني في تعامل

الانسان مع الانسان ومع الكون ومع الطبيعة ، لذلك اتخذت التيارات المختلفة النص القراني ركنا مسايرا لها لتطبيع وتسقيط نظرياتهم عليه فتناولوا افكارهم ضمن هذا الاطار بتخصيص النص لتعميم الفكرة ، وسرعان ماباءت تلك المحاولات بالفشل بعد العرض على الفكر المعرفي ، فكانت تلك التيارات سرعان مااتجهت نحو الافول حينما تعرض فيتصدى لها اصحاب الخبرة بالنص القراني متناولينها بالعرض والنقد البناء وفق الاسس العقلانية ، فالقران الكريم معجز بخطابه لكل المستويات ولكل الحقب الزمانية ، وهذه المكتبة العلمية قد اثرت بالابحاث والمناقشات الغزيرة لاصحاب التيارات المختلفة..

وغير ذلك من الاسباب الاخرى التي كان لها الدور في فشل التيار الحداثوي في العالم الاسلامي..

واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير خلقه محمد واله الطاهرين...

المصادر

١- قاموس المورد / /طبعة ١٩٨٥
٢- مجلة الحرس الوطني العدد ٨٦ / لسنة ١٩٨٩
٣- مجلة فصول المجلد ٤/ العدد ٣ / سنة ١٩٨٤
٤- تقويم نظرية الحداثة/الدكتور عدنان علي رضا النحوي
٥- كتاب الحداثة/مالكو لم برادبري وجيمس ماكفلون
٦- الحداثة في الأدب المعاصر ـ هل انفض سامرها ، د . محمد مصطفى هدارة ، مجلة الحرس الوطني ربيع الآخر ١٤١٠ هـ
٧- أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر: مقاربات نقدية وسجالية"
٨- الحداثةوالحداثية:المصطلح والمفهوم مجلة "أبحاث اليرموك"،ع٢، م١٤، س١٩٩٨
٩- الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر/ الدكتور عبد الحميد جيدة
١٠- الحداثة في الاسلام/عوض القرني
١١- دليل الناقد الأدبي/ د.سعد البازعي وميجان الرويلي/ المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ، سنة ٢٠٠٠م،
١٢- النظرية الأدبية / ديفيد كارتر/ ترجمة: د. باسل المسالمه، دار التكوين، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠م،.
١٣- الحداثة وما بعد الحداثة/فتحي التريكي

١٤- علم اجتماع الأزمة/ نقلا عن "ما بعد الحداثة"/ لعلي خريسان،
١٥- النظرية الأدبية / ديفيد كارتر/ ترجمة: د. باسل المسالمه، دار التكوين.
١٦- حركة الحداثة آراؤها وانجازاتها/ الدكتور ديزيره سقال / دار الصداقة العربية
١٧- مناهج البحث العلمي/الدكتور عبد الرحمن بدوي/وكالة المطبوعات الكويت١٩٧٧
١٨- نقد الحداثة / آلان تورين /ترجمة انور مغيث/المجلس الاعلى للثقافة بمصر
١٩- الجذور النيتشوية لـ"ما بعد" الحداثة/ عصام عبد الله
٢٠- حوار مع د/سعيد بن ناصر الغامدي - بعنوان د/ سعيد بن ناصر الغامدي يقوم الاتجاهات الحداثية العربية - موقع الشبكة الإسلامية على الإنترنت www.islamweb.net. بتاريخ / ٢٠٠٥/٢/٢/١م.
٢١- انظر هذه الإحصاءات وغيرها الكثير في الملحق السنوي الصادر عن مجلة البيان بعنوان (العالم في عام رصد رقمي لأحوال العالم) حسن قطامش ط الأولى ٢٠٠٢م - ١٤٢٣هـ..
٢٢- عن المجتمع المدني وآفاق المستقبل/أ. د طالب مهدي الخفاجي /مقال صادر عن مؤسسة مدارك لدراسة اليات الرقي الفكري ..

٢٣- سميت بالقراءة الحديثة في المؤتمر الذي نظم ببيروت من طرف: المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، والملتقى الفكري للإبداع ببيروت، بتاريخ: ١٢-١٣محرم١٤٢٧هـ/١١-١٢فبراير٢٠٠٦م تحت شعار: "التطورات الحديثة في دراسة القرآن".

٢٤- القراءة المعاصرة مجرد تنجيم"/ لسليم الجابي، و"القراءة المعاصرة تحت المجهر" لنفس الكاتب .

٢٥- القراءة الجديدة للقرآن الكريم/ الدكتور عبد الرزاق هرماس

٢٦- طه عبد الرحمن في محاضرة علمية بعنوان: "الآيات القرآنية و القراءات الحداثية"، ألقاها في إطار: "المنتدى الجامعي للدراسات والأبحاث القرآنية"، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- المحمدية- يوم الثلاثاء ٢٧ محرم ١٤٢٦هـ/ ٨ مارس ٢٠٠٥

٢٧- الفكر الإسلامي قراءة علمية / محمد اركون

٢٨- منهج محمد اركون في نقد الدين والتراث الاسلامي/دراسة نقدية/اطروحة ماجستير /عبد الله بن محمد المالكي

٢٩- روح الحداثة/ د.طه عبد الرحمن/الدار البيضاء المغرب

٣٠- النص والسلطة والحقيقة/نصر ابو زيد

٣١- في قراءة النص الديني/عبد المجيد الشرفي

٣٢- من التفسير الموروث الى تحليل الخطاب الديني/محمد اركون

٣٣- نقد الخطاب الديني/نصر حامد ابو زيد

٣٤- النص القراني امام اشكالية البنية والقراءة/طيب تيزيني

٣٥- مفهوم النص/دراسة في علوم القران/نصر حامد ابو زيد

٣٦- نقد الخطاب الديني/محمد اركون
٣٧- القران والتشريع/صادق بلعيد
٣٨- الاسلام والحداثة/عبد المجيد الشرفي
٣٩- النص القراني امام اشكالية البنية والقراءة/طيب تيزيني
٤٠- الفكر الاسلامي قراءة علمية/محمد اركون

لا ينبغي
التعامل مع الأفكار
والرؤى على انها مذهب
او مدرسة قبل عرضــــها على
المرشح النقدي المتمثل بمعيار العقلانية
في تنقيح وتحقيق تلك الفكــرة والمسلك
الحداثوي كان اخر ظهور لمخاضات الفكــر
الغربي . حاول بعض المتاثرين بالــــثقافات
الغربية استنساخ تلك التجربة على
الواقع الاسلامي بأسقاط تلك
المفاهيم على النصوص
القرانية لتجذيره
كمنهج